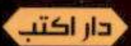
رواية

مكناس

سجين قارا

MEKNES - QARA PRISONER

أحمد الشاعر



مـــكـنـــاس

سجين قارا

مـــكنـــاس

سجين قارا

أحمد الشاعر

الطبعة الأولى، القاهرة 2018م

غلاف : أحمد فرج

تدقيق لغوي : خالد المصري

رقم الإيداع : 3908 /2018

I.S.B.N: 978 977 488-565-5



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية ، القاهرة، مصر

هاتف : 01144552557

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

مــكنــاس

سجين قارا

أحمد الشاعر



دار اكتب للنشر والتوزيع

مكناس تعني المحارب
في اللغة الأمازيغية *

---

* (هي إحدى اللغات القديمة وتنتمي لعائلة اللغات الأفرو آسيوية ويتحدث بها الأمازيغ).

مكناس

المغرب 1680:

ألسنة الشمس تحرق جبين ذلك الشاب الجالس على أحد الأحجار ممسكًا بعصا صغيرة يُداعب بها ذلك العقرب الذي خرج من مملكته وسط الرمال فهو في داخله يشعر أن العقارب هي أكثر الكائنات حريه على وجه الأرض فهو يعشقها ويعشق مراقبتها فمن يقترب منها يكون عُرضة أن يتذوق سُمها اللعين.

كان عابد شابًّا طويل القامة يتمتع بوجه عريض لا يتوافق مع جسده الهزيل يحمل ذلك اللون الخمري، وعيناه تتسعان كعين البومة وتحمل اللون البني الفاتح، كانت لحيته تظهر بشكل خفيف تتسع ابتسامته حين يتسلق ذلك العقرب الأسود العصا في يده، ومنها يتحرك على معصم عابد ويجلس بعد أن اتَّخذ طريقه إلى كتفه.

نهض عابد وبدأ التحرك ناحية ذلك المنزل الواقع في صحراء المغرب تحديدًا في مدينة مكناس، وكلما اقترب ارتجفت قدمه بعد معاناة مع الخوف بداخله، وصلَ أخيرًا إلى باب المنزل وبدأ في ابتلاع ريقه، وعرقه الساخن يتساقط قطرة تلو الأخرى حين سمع كلمات والده.

– أمرك يا من تسكن داخل تلك الروح أن تخرج دون أذًى يا من تسكن تلك الروح.. أقسمت عليك بحق الملوك السبعة، أقسمت عليك بحق الجان والمردة والعفاريت أن تخرج من جسدها.. اخرجْ دون أذًى..شان شان در دِر.

ظَلَّ عابد يرتجف بشدة، وعندما خرجَ والده من ذلك المنزل كان يبدو عليه الإرهاق الشديد، كان الشريف متوسط الطول يرتدي جلبابًا مغربيًّا أسود قاتمًا يحتل وجهه لحية بيضاء، وكانت إحدى عينيه لا يستطيع الرؤية بها وعصاته التي يتكئ عليها لا تفارقه أبدًا.

نَظَرَ إلى ولده نظرة ثاقبة يلومه بها على عدم دخوله معه منذ بادئ الأمر، أشار له أن يتبعه إلى منزلهم، كان عابد معترضًا على طبيعة عمل والده وخصوصًا إذا عَلِم المولى بطبيعة ما تمارسه عائلة الشريف لزج بهم في السجن أو أمر بإحراقهم أحياء جميعًا.

كان ابن الشريف خجولًا إلى حد كبير أو بمسمى آخر جبانًا لا يفعل شيئًا سوى استراق النظر في مثل هذه المواقف، لا يقوى على

سؤال أبيه وأخيه من أين لكما بكل هذا العلم، وكيف تتواصلان مع تلك الكائنات البشعة، كانت أذنه فقط تستسلم لسبّات ولعنات أخيه الأكبر حين يصفه بالجارية، وأنه عار على عائلة الشريف، ولكن ملجأه الوحيد كان التفكير في شخص واحد فقط (ميرا).

***

أصبح البرد قارسًا في ذلك الوقت من الليل، والظلام هو سيد تلك الليلة، تتطاير حبات الرمال وتغزو الرياح الأجواء فيصدرا معًا صوتًا يُشبه صوت صرير الباب، مما يبثُّ الرعب في قلب أي إنسان يجوب ذلك المكان،ولكن من حُسن الحظ أنه لا يمر من هنا أي بشري حتى لا يرى ذلك المشهد.

حيث كان واقفًا كائن أسود كبير لا يظهر منه سوى عينيه الحمراوين ممسكًا بصولجان كبير، بدأ بالتلويح به في الهواء حتى ظهر ذلك الجمع الرهيب من الشياطين والجان أشكالهم تتنوع ما بين القبيح والأشدّ قبحًا، أجساد حمراء وأخرى مشققة الأنياب وقرون وأظفار منهم من يفترش جناحيه ومنهم من تشعر أنه يزحف كالثعبان ويصدر فحيحًا مزعجًا، منهم الطويل والقصير، ومنهم من يكره ذلك الكائن الأسود تعرفه من تلك النظرة التي تعلو وجه المشوه حين يكشر عن أنيابه فيسيل لعابه ويهبط على الرمال فيحترق ذلك الجزء وتُترك بقعة سوداء.

يبدو أنهم يعقدون مجلسًا ما، كانوا يقفون ناظرين تجاه ذلك الكائن.

أشار لهم الكائن أن يجلسوا، فجلسوا جميعًا حول ما يشبه المائدة، ملامح المكان تتضح شيئًا فشيئًا، إنهم داخل قصر كبير قصر بُنِيَ في قلب الجحيم قصر الكائن الأسود قصر الملك زنقط.

وَقَفَ الملك وكشف عن وجهه بإزاحة ذلك الغطاء الذي كان يُخفي ذلك العبوس والجلد ذا الملمس الخشن وهذين القرنين المدببين وعينيه حمراوي اللون، رفع حوافره في الهواء كإشارة منه أن يترل ذلك القفص من أعلى ليظهر بداخله عفريتٌ صغير، فبالرغم من ماهيته فإنه يشعر بالخوف والرعب يسيطر على ملامحه الشيطانية له أذنان طويلتان، وذيله في نهايته ما يُشبه السلاح المدبب وأجنحته قصيره، ويداه الصغيرتان تتعلقان بحديد ذلك القفص ثم تحدث أحد الحضور قائلًا:

– مولاي، إن ذلك العفريت صغير على ذلك العقاب.

– من ارتكب خطأ يجب أن يتحمل نتيجته.

– أنا لا أقوى على رد حكمك، ولكني اطمع في رحمتك.

– رحمة ؟! أنسيتَ من نحن يا ماعز؟!

– طلب العفو يا مولاي.

نَهَضَ الملك زنقط في شموخ، وقد أحكمَ قبضته على صولجانه، ثم نظر إلى العفريت الخائف وعاد بنظره للجمع وقال:

- مَن يتعدَّ على قوانيننا فمصيره الموت.. لا يسمح أبدًا بالتدخل في عالم البشر، ومن يفعل ذلك سوف يواجه عقابي.. حكمت على ذلك العفريت بالموت..قُضي الأمر.

أشار الملك إلى أحد الحراس فتوجه مسرعًا ناحية القفص وأخرج ذلك العفريت، وأمسك به، وكان الأخير يصدر أصوات الاستغاثة وينظر لكل من حوله فكانوا يشيحون بنظرهم عنه، ذهب الحارس إلى ممر طويل يعمه الظلام حتى توقف عند قفص هو يعرفه جيدًا، فمن داخل الظلام صدر صوت زمجرة مصحوبة بحشرجة تُشبه صوت رجل يُحتضر.

نظر الحارس إلى العفريت الصغير في يده وهو مُشفق عليه، ثم قطع ذلك الإحساس صوت الكائن بالداخل يعلو وتشعر لحظة أنه يهزُّ الظلام نفسه، فألقى الحارس بالعفريت وسمع صوت تهشم عظامه جراء الأنياب التي غُرست بها، وأصبحت الدماء السوداء تسيل تحت قدمي الحارس. كان كل ذلك يتابعه قط أسود يقف مستترًا حتى لا يراه الحارس فابتسم ابتسامة خبيثة تعبر عن شخصيته.

***

يقف عابد مستندًا إلى تلك الشجرة أمام البحيرة الصغيرة حيث دائمًا ما كان يلتقي بميرا هنا، تذكر أول لقاء لهما كان في ذلك المكان كانت تتجول بحصانها الأسود حول البحيرة، فإذا بالحصان يأتي أمام عابد ويقف يأبى الحراك، وكأن الحصان يعلم ما يجوب في خاطر عابد وما يخفق به قلبه من عشق لميرا، تلاقت عيناها هي الأخرى بعين عابد شعرت أن هناك قوة غريبة تسيطر عليها لا تستطيع أن تشيح نظرها عنه أنها قوة خفية تسمى الحب.

قَطَعَ ذلك السيل من الذكريات وصول ميرا التي وضعت قبلة حارة على خده الأيسر فابتسم خجلاً، جلسا على صخرتهما المعتادة، كانت ميرا فتاة خمرية اللون تتمتع بجسد ممشوق، شعرها منسدل إلى الوراء، ذات عين بُنية كانت الأجمل في مكناس بل فتاة مكناس الأولى، وجنتاها لا يفارقهما الأحمرار مما يُضفي على جمالها جمالًا، أمسك عابد بيدها ثم قبّلها وتحدث متنهدًا:

– لقد اشتقتُ إليك يا ميرا.

– وأنا أيضًا يا عابد، إلى متى سنظل هكذا؟

– ماذا تقصدين بهكذا؟

– نلتقي في الخفاء.

– وما المهم في ذلك، المهم أننا نلتقي.

- أريد أن يعلم الجميع أني أحبُّك.

- سيرضى الجميع بذلك إلا شخصًا واحدًا فقط.

- من ذلك الشخص؟

- أنتِ تعلمينه جيدًا.. والدك المولى إبراهيم.

- إن أبي لن يقف في طريق سعادتي، سوف أتحدث معه.

- ميرا، آنا لا أريد خسارتك.

- إنني أحبُّك يا عابد.

قالت جملتها الأخيرة وارتمت في حضن عابد الذي ذرف دموعــه رغمًا عنه لأنه يعلم بداخله أنه لن يحظى بها، فهو على يقين ان المولى حاكم المغرب لن يرتضي لابنته أن تتزوج بابن الشريف، فهو لم يكن بيده أن يقع في غرام الفتاة الأجمل في مكناس ابنة المولى.

***

داخل قصر الحاكم، تجلسُ كنزا زوجة المولى الأولى في الجناح الملكي الخاص بها حيث كان شديد الاتساع، تنسدل الستائر الحريرية على النوافذ المحيطة، تجلس على ما يُشبه الوسائد الكبيرة. الجدران تتميز بارتفاع شاهق، وزُينت برسوم تنوَّعت أشكالها ما بين الطيور والحيوانات ومناظر طبيعية يتخللها ألوان براقة وزخارف متنوعة أبرزها زخرفة الأرابيسك.

كان يجلس حول كترا الخدم من عبيد بخارى الذي اعتاد المولى أن يتخذ بناهم الأكثر جمالًا ويوكلهنَّ للوصيفات داخل القصر فتتخـــذ الملكات منهنَّ خدمًا لها، على الجانب الآخر كان يتخذ الرجال منهم جنودًا بالجيش.

كانت كترا امرأة في بدايات عقدها الرابع، تمتع بجمال زائد عـــن ابنتها ميرا، ترتدي تلك الملحفة المغربية التي تزيد من جمالها، ترتـــدي من الحُلي ما تيسَّر ليديها وقدميها أن تحملـــه، عيناهـــا الـــسوداوان يحددهما ذلك الكحل المغربي، إذا نظرت إلى ساعدها الأيمن تجد ذلك الاسم منقوشًا بالخط العربي؛ إنه اسم المولى.

دخلت ميرا على والدها وسط ذلك الجمـــع، فابتـــسمت لهـــا وشعرت الأم ان ابتسامة ابنتها تُخفي بداخلها نوعًا من الحزن وعدم الرضا، فأمرت الوصيفات أن يرحلن حتى يتسنى لها أن تعـــرف مـــا يجول بخاطر ابنتها دنت منها ميرا وكما العادة أراحت رأسها علـــى فخذها اليُمنى، وبدأت الأم في مداعبة خصلات شعر ابنتها.

- ما بال فتاة أبيها الأولى؟

- لا عليك يا أمي.. إنني بخير.

- أتخفين عني ما تفضحه عيناك؟

اعتدلت ميرا في جلستها ونظرت لوالدها ثم قالت:

- لا يوجد ما أخفيه يا كنزا.

- إني أعلم تلك النظرة جيدًا.

- أي نظرة؟

- نظرة العشق، كنت أنظر بها لوالدك كلما قابلته.

احمرَّ وجه ميرا خجلًا لاكتشاف أمها ما تخفيه، ثم تابعت كنزا وهي تبتسم

- مَن المحظوظ في كل المغرب لينال قلب ابنتي؟

قالت ميرا بصوتها العذب بعد أن تنحنحت.

- عابد يا أمي.

- ومَن يكون عابد؟

- عابد بن الشريف.

اختفت الابتسامة من وجه الملكة، وأشاحت بنظرها ناظرة إلى الأفق من خلال النافذة بجوارها، وتنهَّدت وربتت على كتف ابنتها التي لاحظت تغير ملامح وجه أمها وهي لا تعلم السبب وراء ذلك.

***

في إحدى قاعات القصر تحديدًا فيما يُسمى الجناح الحربي كان يجلس المولى إبراهيم وبجانبه الوزير وقائد الجيش، كان المولى إبراهيم يتمتع بوجه مُدبَّب تسيطر عليه لحية سوداء ثقيلة، يرتدي ما يشبه عمامة بيضاء، يتوسطها طاقية حمراء وقفطان من الحرير يتخلله في الوسط حزام يحمل به خنجره وسيفه، حينما تولى حكم المغرب كان شابًّا في عمر السادسة والعشرين، واتخذ من مدينة مكناس عاصمة له، كان يتمتع ببأس شديد بالنسبة لشاب صغير في مثل عمره.

اجتمع اليوم برجاله ليحدد مصير عائلة الشريف الذي عَلِمَ من خلال أعينه في المدينة أنهم يمارسون السحر، وذلك مُحرَّم تمامًا في بلاد المغرب، فكان شغله الشاغل أن يقضي على تلك الطائفة التي تدّعي تسخيرها للجان والخدام، وعائلة الشريف من أخطر العائلات التي تُمارس ذلك النوع من السحر.

جلس المولى وأمر القائد والوزير أن يتخذا موضعهما من الجلوس بدأ الوزير قائلًا:

- مولاي، إننا يجب أن نوقف تلك العائلة.

- يجب إحراقهم أحياء ليكونوا عبرة لغيرهم.

قالها قائد الحرس غاضبًا.

فلتهدأ حماستكما قليلًا، لن نقتلهم أو نحرقهم أحياء، ولكن سوف نجعلهم يتمنون الموت ولن ينالوه.

- كيف يا مولاي؟

عقّب الوزير، وتبعه القائد قائلًا

- لا أظن أنك تقصد س..

- بل لأقصد ذلك.. سجن قارا، إنه مصير كل من يمارس السحر الأسود اللعين، فليرِني الشريف وعائلته كيف سيتعاملون بسحرهم الأسود تحت الأرض.

ابتسم كل من الوزير وقائد الحرس وأمرهما المولى بالانصراف، ثم انصرف هو الآخر بعدهم متوجهًا إلى غرفة ابنته ميرا، دلف من الباب فوجدها جالسة تنظر من نافذتها تُطالِعُ ذلك الحصان الأسود الخاص بها، وتعلو وجهها ابتسامتها الخاصة التي دائمًا ما كان يعشقها أبوها

جلس أمامها بعد أن طَبَعَ قبلةً على جبينها فتنبهت إلى وجود أبيها فنهضت من مجلسها، وانحنت احترامًا له وهي تمسك بكلتا يديها فستانها الأسود، ثم جلست لتصبح في وضع المواجهة ثم قالت:

- أبي، أين كنتَ طوال اليوم؟

- أنت تعلمين لا يشغلني عنك سوى مكناس.

- لهذه الدرجة تعشق تلك المدينة؟

وأكثر من ذلك.. قبل أن أُبَايَع لحكم المغرب جئتُ هنا عندما كنت صبيًّا صغيرًا، وهنا قابلت أمَّك لأول مرة كانت تجلس على ذلك الشاطئ المواجه لقصرنا الآن لتلك المدينة مكانة خاصة في قلبي.

- أتحب أمي يا أبي؟

- من بين زوجاتي هي الأقرب.. عشقي الأول.

- أريد أن أخبرك سرًّا يا أبي.. إنني أعشقُ..

- ميرا. تعشق؟ ومن ذلك الولهان؟

- إنه عابد بن الشريف.

علت علامات الغضب وجه المولى ولاحظت ميرا تحولًا في نبرة صوته واستياء شديدًا عندما ذكرت ذلك الاسم.

- هذا مستحيل.. ألم تجدي سوى ذلك الشخص.

- وما به يا أبي؟

- إنهم سحرة يا ميرا.. مشعوذون.

- سحرة.. هذا غير صحيح يا أبي.. عابد ليس مثلهم.

- المشعوذون لا يوجد فرق بينهم.. جميعهم سواء.

- ولكني أحبه يا أبي.

- اليوم سوف تنتهي تلك القصة سوف يسجنون في سجن قارا.. قُضي الأمر.

قالها المولى وخرج من الغرفة تاركًا ابنته بعد أن علمت أن كلام عابد كان صحيحًا، حين قال إنه لن يقبل به زوجًا ولكن ما آثار

قلقها حقًّا هو قرار أبيها بسجنهم في قارا يجب على الأقل أن تنقذ حبيبها، يجب أن تحذر عابد.

ارتدت تلك الملحفة السوداء وسترت ووجهها جيدًا وقررت الخروج، ولكن قبلها أرسلت إحدى خادمتها برسالة إلى عابد أن يقابلها عند البُحيرة لأمر مهم لا يحتمل التأخير، أمر إذا تحقق لن تلقاه مرة أخرى، فإن ما ينتظره في ذلك السجن أسوأ من الجحيم نفسه.

***

كان ذلك القط الأسود يتابع التهام صاحبه في حذر شديد خوفًا من أن يراه ذلك الوحش المخيف، بدأ في التحرك خارج الممر وهو يُحرِّك رقبته يمينًا ويسارًا حتى وصل إلى غرفة خاصة به ودلف إليها مسرعًا

وقف ثابتًا في منتصف الغرفة، وبدأ جسده في التلوي، محاولاً التحرر من قيد ما، ثم زاد حجمه وتغيرت ملامحه إلى أن أصبح ذلك الجسد الأحمر ذو عين سوداء، وقرن وحيد في مقدمة رأسه وأظفاره تميل للطول ولعابه يسيل بجوار نابيه، يبرز جسدًا ذا عضلات ضخمة، تشعر أن جسده مُشقق إلى حدٍّ كبير. جلس على ما يشبه الكرسي، ولم يكد ينتهي من الجلوس حتى دلف إلى الغرفة ذلك الجني المعروف بـــ صنهور وجلس أمامه ورحَّب به قائلًا بصوته الأجش:

– مرحبًا بك يا صنهور.

– مولاي. الظام.

– أحضرتَ لي ما أمرتك به؟

– لقد حاولتُ ولكن..

– حاولت؟

قالها غاضبًا ثم تابَعَ:

– إن القط الأسود لا يقبل التأخير أو الخطأ.

– كان أتباع الملك زنقط يراقبونني.

– مَن زنقط هذا؟ أنا الملك القادم، أريد ذاك الزنقط أن يركع أمامي، أريد أن أُحقق انتقامي، وأريد أن أحكم العالم وأقضي على البشر.

– البشر!

– نعم إنني أكرهم يا صنهور برغم ما حدث، وبذرتي التي تركتها في إحداهن، ولكن يجب أن يُبادوا بنسائهم وأطفالهم، ويُحرَّم أن نقترب من عالمهم، وبذلك الصولجان الذي يحمله وبعد أن أسجنه سوف أصبح أنا السيد.. أنا الظام، أنا من تمرَّد على سليمان، من سيوقفني لن يمنعني أحد عما أريد.

– أنا سأوقفك يا ظام.

قالها الملك زنقط وقد دخل إلى الغرفة، وأمر الجـان أن يحكمـوا قبضتهم على ظام، بعد أن هرب صنهور، وبدأ القط الأسود في محاولة الفرار، ولكن أوقفه الملك زنقط بإشارة من صولجانه الأحمر.

***

داخل منزل الشريف يجلس هشام ذو الجسد الضخم صاحب العضلات المفتولة بجوار أبيه، وقد أعدّ لهما عابد الطعام، كان هشام ينظر بسخرية لأخيه الذي اعتاد أن يطلق عليه لقب الجارية من وقت لآخر لاهتمامه بأعمال المنزل، جلس عابد بعد أن انتهوا من تناول الطعام، وكان منزلهم يتكون من أثاث قديم متهالك بعض الشيء إلا من بعض الكراسي ومائدة لا أكثر. أمرٍ الشريف ابنيه أن يجلسا أمامه لمناقشة أمر مهمٍّ:

– ابنيَّ يجب أن تعلما أن ما نفعله هو لسبب ما.

– إنني معك يا أبي، ولكن تلك الجارية لا أظنُّ؟

– هشام، أنا لست بجارية، ولكن لا أريد أن أصبح مثلكم.

– شئت أم أبيت يا عابد إنه يجري في دمك..

قالها الاب معنفًا لعابد ثم تبعه هشام:

– دعك منه يا أبي إنه جبان.

– لقد علمتني يا أبي، ولكني لا أقوى على استخدام ذلك السحر الأسود.

- إذن تلك ستساعدك؟

أخرج الشريف من صندوق صغير بجانبه خاتمًا صغيرًا ذا شـــكل شكل دائري حُفر عليه بعض الطلاسم، كان الخاتم به عين ســـوداء تحيط به هالةٌ بيضاء لونه أسود كظلام الليل، ويوجد حـــول شـــكل العين أنياب عديدة، ما إن رآه هشام حتى ابتسم وأسرع قائلًا: "خاتم الشيطان" قال الأب مُوجِّهًا الكلام إلى عابد:

- حينما تصبح جاهزًا يجب أن ترتديه سوف يساعدك في التغلب على خوفك.

- ولكن يا أبي.. أنا؟

قاطعته صفعة من أخيه وقال له معنفًا:

- فلتأخذ الخاتم من أبيك دون مجادلة.

أخذ عابد الخاتم إرضاء لأبيه وهو يعلم أنه لن يستخدمه فتلك ليست حياته التي يرجوها.

توقف ذلك النقاش الأسرى بصوت دقات عالية على باب المترل استنتج هشام أنهم جنود المولى إبراهيم، نهض هشام مسرعًا ووقـــف خلف الباب في محاولة ليحول دون دخول الجنود في حين ذهب أبيه إلى غرفة مجاورة وقف في منتصفها وأمسك بطباشير لونه أحمر وبدأ في رسم دائرة على الأرض بها نجمة سداسية وطلاسم أخرى أما عابـــد

فكان ينظر لأبيه دون حراك، تابع أبوه رسم الطلسم ثم وقف مسرعًا وقال بلغة يبدو أنها فارسية:

"هی ظام من جوی درهزينه ها، الهام بخش من، شما که همسرمن به عنوان يک آرائه شده تو، آه وعده داده به اطاعت، ازمن محافظت ازإنسان ها، شما قسم خورده شما بازدروازه لی جهان را به خود سوگند شما را درمقابل پدرو مادر و پدربزرگ و مادربزرگ وقوم وخويشی خود را، به دادگاه تجديد نظربه شما و لی مجبور شخص ديگری، من متحد و پسر از متحد خود را شما هستم، می آيد پاسخ درآن لحظة".

كرَّر الكلمات الأخيرة ثلاث مرات حتى انفتحت تلك البوابة الضخمة شديدة السواد، نظر الشريف إلى عابد الذي كان يتصبَّب عرقًا من شدة الخوف فهو يعلم جيدًا ما قاله والده الذي صرخ فيه قائلًا:

- هيا يا عابد لنذهب.

- لا يا أبي.. إني خائف.

- لا تكن جبانًا.. أقفز داخل البوابة.

- اتركه لجبنه يا أبي واقفز أنت.

نظر الأب لعابد وقد امتعض وجهه، ثم قَفَزَ إلى البوابة وتبعه هشام بخفه لا تتناسب مع ضخامته داخلها ثم انغلقت من تلقاء نفسها في نفس الوقت انكسر باب المترل ولم يجد الجنود سوى عابد فكبَّلوه وكان ابن الشريف مُطيعًا لهم تمامًا، ولم يقاومهم.

داخل القصر جلس المولى إبراهيم على كرسي عرشه وبجانبه كنزا، وأمر أن تحضر ميرا ذلك الحدث، دخل أحد الحراس مُمسكًا بعابد الذي تنساب الدماء من كل جزء في وجه، وألقى به الحارس أرضًا فجثا على ركبتيه، نظر إلى الملك ثم وجَّه نظره تجاه ميرا التي كانت تبكي، وجَّه السلطان حديثه لعابد قائلًا:

– أين والدك وأخوك؟

– أنا لم أفعل شيئًا يا مولاي.

– أجِبْ بما آمرك به.

– لا أعلم.

– أتعلم عقوبة من يمارس الشعوذة في مكناس؟

– أنا لم أمارس شيئًا.. أنا بريء.

– إنني أراها في عينيك، وأرى دماءك السائلة على وجهك، دماءك العفنة المليئة بالسحر الأسود.

– أرجوك يا أبي لا تفعل ذلك.

– قالتها ميرا في محاولة لاستعطاف أبيها، ولكن دون جدوى.

– وقف الملك ثم توجَّه ناحية عابد ثم قال لقائد الحرس:

– قُضي الأمر، أودعوا عابد داخل قارا.

– ثم اقترب من وجه عابد ونظر له بحدة وقال مداعبًا لحيته:

– لذلك السجن مخرج واحد فقط.. إذا عثرت عليه فأنت حُر.

***

صرخات الظام إثر تعذيب زنقط له تهزُّ تلك الصخور المحيطة بهم، كان الجن يهابون أن يقفوا أمامه، ولكنه اليوم أسير لخطيئته. تحـرَّك الملك زنقط بصولجانه الأحمر ووقف أمام القط الأسود وهـو يـرى دماءه السوداء تسيل من جسده وابتسم قائلًا:

– ألم أقُل لك إني سأوقفك يا ظام؟

– لن تنتهي المعركة يا زنقط.. يومًا ما سأقتلك.

– أنت لم تسمع حُكمي بعد لتتوعد بقتلي يومًا ما.

– إنني أُشفق عليك يا زنقط، إننا لم نولد أعداء، هـم أعـداؤنا وأنت تحميهم.

– إذا كنت تعلم أنهم أعداؤنا لماذا عشقت بشرية؟!

قالها زنقط بغضب شديد، وقد وقعت هذه الكلمات كالـصاعقة على مسامع الحراس من الجان فهم لم يكونوا على علمٍ بحجم خطيئة الظام، ولكنها المرة الأولى التي يسمعون عن شيء كهذا، أن يتجـرأ أحد الشياطين ويفعل هذه الفعلة، تابع زنقط قائلًا:

- عشقتُها وذهبتُ لها ليلًا، ولكن ذلك الطفل الذي وُلد أتدري ماذا كان سيفعل بنا إن ظَلَّ على قيد الحياة.

- ظل على قيد الحياة.. هل قتلته؟

- كان يجب أن يموت يا ظام.. لا مكان للمدنسين بيننا.

صرخ القط الأسود، وحاول الانقضاض على زنقط بأنيابه ولكن الحراس أحكموا قبضتهم عليه.. نظر له زنقط بنظرة تحمل القليل من الإشفاق.

- إنه العهد يا صديقي.. الذي قطعناه ألا نتدخل في شئوهم، وأنت تتجول كما لو كان بيتك.

- سأقتلك يا زنقط.

- قُضي الأمر.. حكمت عليك أن تسلسل إلى أبد الأبدين في تلك الأرض البعيدة.

أصدر ظام صرخة أرعبت قلب زنقط الذي دنا منه ثم أردف بصوته قائلًا:

- ليس هذا فقط.. بل سأقصُّ لك جناحيك.

أمر الحارسين أن يتقدما ليساعدا الحارسين الممسكين به وثبتوه جيدًا ثم اقترب بصولجانه ومسح على جناحيه فقطعهما مما زاد من صرخات القط الأسود.

وضع جنود السلطان سلاسل حول رقبة عابد وجرّوه مثل الدابة وهو يصرخ ليس من الألم حول يديه ورقبته، ولكن من ذلك العقاب الذي قرَّره المولى، إنه الان سوف يذهب إلى سجن قارا الملعون، كان لا يردد سوى جملة واحدة:

– يا مولاي.. ليس ذلك السجن.

ولكن ندائه كان بلا جدوى.

***

وصل جنود الجان بالظام إلى ذلك المكان المسمى بالأرض البعيدة، أحكموا القيود عليه، وكان الملك زنقط يقف ناظرًا إلى الظام الـــذي كان يردد جملة واحدة:

– يومًا ما سأعود.. سأعود.

ابتسم الملك ساخرًا من ثقته، ثم أشار بصولجانه إلى القيود فبرزت الطلاسم عليها وأشعت ضوءًا أحمر ثم قال:

– لن تتحرر سوى بفك رموز الطلسم.. بتعويذة الأبطال.

***

وصل المولى وجنوده إلى مكان سجن قارا حيث توجد فوَّهة كبيرة يتم من خلالها إلقاء المساجين إلى القاع دون رحمة، ومازالت صرخات عابد تعلو دون جدوى.

أمسك الجنود بجسد عابد الهزيل، وتقدَّموا به الى الفوهة الكبيرة واستوقفهم السلطان ليقول لعابد في سخرية:

– هذا جزاء من يتطاول على ابنة المولى.

اتسعت عينا عابد لتلك الجملة وتابع المولى قائلًا:

– أنا أعلم أنك لا تمارس السحر ولكنني أحب ابنتي، ويجب أن تنساك وتذكَّر أن هناك مخرج واحد فقط إذا عثرت عليه فأنت حرّ.

تقدَّم الجندي وأمسك عابد مرة أخرى وألقى به في الفوهة الكبيرة، صَرَخَ عابد، واستمرت صرخاته حتى ارتطم رأسه بالأرض وأصبح الظلام سيد المكان.

***

سجن قارا

سجن قارا يعدُّ من أكثر السجون غموضا في ذلك العصر حيث إنه السجن الوحيد الذي ليس له باب، يوجد السجن تحت مدينة مكناس، أمر ببنائه المولى إبراهيم، مساحته شاسعة لدرجة كبيرة حيث إنه يُقال أنه يمتدّ من مدينة مكناس إلى مدينة خنيفرة، كان يزُج به كل من يعارضه أو يتمرد على حكمه أمثال الشريف وعائلته.

بُني هذا السجن على هيئة دهاليز ومتاهات معقدة جدًّا، بكل قاعة من قاعاته ممرات، وكل ممر يؤدي إلى قاعة وهكذا فإنك وأنت داخله تشعر أنك نقطة في دائرة لا تتوقف عن الدوران ولا الحراك لا تنتهي أبدًا.

كان ذِكْرُ هذا السجن يبثُّ الرعب في قلوب مواطني مكناس، كان لا أحد يجرؤ على عصيان المولى لأن مصيره سيكون تحت الأرض، كان الطعام يدخل إلى السجناء عن طريق فتحات من أعلى

وكان الظلام شديدًا إلا من بعض الأماكن التي تقع فوقها الفوهات تضيء الشمس تلك البقع نهارًا ويتسلل ضوء خافت من القمر ليلًا.

جلس عابد بعد أن أفاق ورأسه ينساب منها الدماء وهو يحاول السيطرة عليها،كانت الرؤية غير واضحة، نهض عابد محاولًا استجماع ما تبقى من قواه وتحرَّك بضع خطوات وهو يترنح كالسكير، توغل داخل السجن فوجد المكان عبارة عن دهاليز تعلوها أقواس نصف دائرية تتوجها بعض الكلمات والرموز لم يرى عابد أحدًا غيره في تلك البقعة من السجن،بدأ يمشي وهو لا يعلم إلى أين ستقوده قدماه، ممرات عديدة قطعها عابد، يكتنفها الظلام، بدأ في استنتاج الأمر شيئًا فشيئًا فقارا ما هو إلا متاهة لا تنتهي.

وصل عابد إلى ذلك المكان داخل السجن فوجد أناسا لا تعد ولا تحصى، نساء وأطفالا وشيوخًا، وتعرَّف إلى بعضهم، فمنهم من كان يأتي لزيارة أبيه من وقت لآخر، ومنهم من علَّمه أبوه ذلك السحر الأسود وطرق الممارسة، أدرك أنه يقف الآن بين أعظم السحرة في المغرب.

اقترب عابد من أحد الأعمدة حيث تتابعه نظرات كثيرة ممن حوله جلس وأراح ظهره على تلك الدعامة الضخمة، ساد المكان صمت تام، نظرات باردة واجهت عابد من ذلك الرجل الذي يجلس عند الدعامة المقابلة له وقف الرجل مبتسمًا وبدأ في التقدم ناحيته.

كان ذو قدمًا واحدة وبشرة السمراء ووجه احتته التشققات إثر تقدمه في السن، يبدو عليه أنه في السبعينات من عمره، دنا من عابد الذي ابتعد بدوره وضمّ قدميه إلى صدره، ابتسم ذلك العجوز فظهر تجويف يدعوه بالفم ولكن ما رآه عابد ليس له علاقة بذلك، المسمى ظهرت أسنان بعض منها مشقق وأخرى سوداء والباقي لا وجود له، أغلق ذلك الغريب عينيه، وبدا وكأنه يستنشق رائحة عابد مما زاد ابتسامته وقال بصوت يشبه فحيح الثعبان:

- أنت.. ابن الشريف.

لم يعلق عابد، وظَلَّ ساكنًا مكانه ثم نهض الغريب مسرعًا وبدأ يقفز على قدمه الوحيدة ويصدر ضحكات عالية وهو يقفز فرحًا، وبدأ يقفز ويقفز ويردد بكلمات لم يفهمها:

- لقد جاء.. ابن الشريف جاء.. رحبوا به..رحبوا به.

ثم توقّف ولكن ابتسامته لم تتوقف، ونظر إلى عابد وقال:

- رحِّبوا بالمدنَّس.

ثم سار الرجل ناحية الظلام حتى ابتلعه تمامًا، لم يعِ عابد ما قاله ذلك الرجل، وإن كان قد فسره بأنه قد جُن جراء المكوث في قارا.

مضى وقت طويل وهو ما زال جالسًا أمام تلك الدعامة قابضًا على يديه خائفًا حتى لمح عقربًا قادمًا من داخل حفرة صغيرة، ابتسم

عابد وبسط يَدَه على الأرض حتى يستطيع ذلك العقرب أن يتسلق عليها ثم وضعه على كتفه اليُسرى، سمع عابد صوت صراخ قادم من أحد الأماكن داخل السجن، فانتفض جسده وهرب العقرب إلى تحت الأرض مرة أخرى ونهض جميع السجناء متجهين إلى مصدر الصوت.

تحرك الجميع في حذر شديد، كان بعضهم يتمتم بكلمات غير مفهومة كأنه يُصلي إلى ربه، والبعض الآخر اكتفى بأن يقف بعيدًا مُراقبًا ما سيحدث، قبل أن يبلغ الجميع تلك القطعة المُغطاة بالظلام، والتي كانت مصدر الصرخة، فوجئ الجمع بجثة تُلقى إليهم من الداخل، صمتَ الجميع وابتعدوا عنها حتى اقترب رجل ضخم البنية بخطوات ثابتة، ونظر إلى الجثة ثم نظر لهم مرة أخرى وقال في أسف واضح:

- إنه العجوز ذو القدم الواحدة.. لقد فارَقَ الحياة.

- ولكن مَن قتله؟

نَظَرَ الجميع تجاه مصدر الصوت كان عابد صاحب ذلك السؤال ظل الجميع صامت دون أن ينطقوا ببنت شفة أو يُجيب أحد على سؤال عابد، ثم عاد بهدوء مرة أخرى إلى أماكنهم. إلا من ذلك الرجل ضخم الجثة الذي دنا من عابد طالبًا أن يجلس معه، بدأ عابد الحديث قائلًا:

- مَن قتل ذلك الرجل؟

– قل لي أولًا.. مَن أنت؟

– اسمي عابد.. عابد بن الشريف.

– أهلًا بك في مستنقع قارا.

– وأنت ما اسمك؟

– صهيل.

– مَن قتل ذلك الرجل؟

– لا تقل مَن.. بل قل: ما الذي قتل ذلك الرجل؟

– ما!

– لا أحد يقوى على الاقتراب من ذلك الجزء الأسود، هناك شيء ما يقتل كل من اقترب، ولكن في كل مرة كان كل مَن يدخل ذلك المكان من السجن لا يخرج ولكن خروج جثة ذلك العجوز .. يعني أن ذلك الوحش يتوعدنا بما هو قادم.

– من الواضح أننا سوف نموت هنا.

– لا تصطنع قلة الحيلة يا عابد بما تقول.. فأنا أعلم ما أنت قادر على فعله.

– وماذا تعرف عني يا صهيل؟

– أنت ابن الشريف، أعظم ساحر في مكناس.. ألا تستطيع الخروج من هنا.

– أنا لا أمارس السحر.. أنا لستُ مثل أبي.. لقد زجَّ بي إلى هنا ظُلمًا بتهمة الشعوذة، ولكني لم أمارسها يومًا.

– أتريد نصيحة؟

– تفضَّل.

– إن الشيء الذي أودعك ذلك المستنقع.. قادر على أن يخرجك منه.

– ماذا تقصد؟

– أنا أملك شيئًا سوف يمكننا من الخروج من هنا.

– ولماذا لم تستخدمه من قبل؟

– كنت أنتظرك!

***

كانت ميرا جالسة في غرفتها الخاصة في القصر أمامها مائدة الطعام، وقد أصبح وجهها شاحبًا من عدم تناولها الطعام، تحاول الخادمة أن تطعمها، ولكنها ترفض، دخلت كترا وأمرت الخادمة بالانصراف، ثم جلست جوار ابنتها وهي لا تعلم ما تقول لتخفف عنها، كانت على تلك الحال ما يقرب أسبوعين.

أمسكت بيد ابنتها الباردة، ونظرت في عينيها التي سيطرت عليها الهالات السوداء ثم قالت:

– يا ميرا.. لقد أصبح وجهك شاحبًا.. ألن تتناولى الطعام.

– أنا لا أريد شيئًا يا أمي.. أريد أن أموت حتى أكون مع عابد.

– إن عابد لم يمُت.

– أنت تعلمين أن سجن قارا لا يخرج منه أحد.

– انسيه يا ميرا..

– لا أستطيع يا أمي.

احتضنت الأم ابنتها وهي لا تقوى على فعل شيء لها، قبَّلت جبينها ثم قررت الذهاب لتتحدث مع المولى في ذلك الأمر، اتخذت الممر طريقًا لها ثم هبطت درجات السلم الرخامي وتوجهت إلى البهو ومنه إلى الحديقة والتي يتوسطها نافورة عظيمة يجلس أمامها المولى في ذلك الوقت ليستمتع بغروب الشمس.

اقتربت منه وجلست فنظر لها مبتسمًا وقبَّل يدها فوجدها تبتسم فقط لحضوره وليس سعادة وجودها بجانبه.

– ما بك يا كترا؟

– مولاي.. أطمع في طلب صغير.

– أنت تعلمين أنني لا أرفض لكِ طلبًا.. ماذا تريدين؟

– ألا يمكنك تخفيف الحكم على عابد؟

- كترا.. لقد حذرتُك سابقا من خوض ذلك النقاش معي.

- ولكن ميرا تمتنع عن الطعام.. إنها تعلم أنه لن يعود من ذلــك المكان.

- لذلك أرسلته إليه.

- أنت تعلم أنه لم يمارس السحر.. فلماذا ذلك الحكم القاسي؟

- لأن ذلك ما يستحقه.. لن تتزوج ميرا من عابد هذا.

- إنها ليست ابنتك لتتحكم في مصيرها.

- كترا..

صرخ بها المولى فارتعش قلبها خوفًا لأنها تعلم أنها قد تخطَّت حدودها بتلك النبرة، وبذلك الموضوع تحديدًا. اعتذرت سريعًا في محاولة منها لتخفيف حدة النقاش، فأمرها المولى أن تنصرف، وألا تحدثه في ذلك الموضوع مرة أخرى حتى لا يسمعها أحد الخدم في القصر، وتعلم ميرا السر الذي جاهَدَ المولى في إخفائه عنها.

انصرفت كترا وظل المولى قابعًا في مكانه ينظر إلى الأفق يستجمع ذكريات سعى جاهدًا لنسيانها، ولكنه كان يعلم أن ذلك اليوم اقترب.. فإن الأسرار لا تقبع في مكانها كثيرًا في ذلك الزمان، نهض واتجه إلى خلوته في الجزء السفلي من القصر والتي لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها أو إزعاجه وهو داخلها.

أحكم غلق الباب جيدًا جلس على الأريكة نزع عمامته الملكية ثم جثا على ركبتيه على الأرض وأزاح تلك السجادة فظهر بابًا محكم الإغلاق بقفل حديدي ضخم فتحه ثم ظهر سلم خشبي دلف إليه وهبط السلم ثم أضاء شمعة هو يعرف مكانها جيدًا، فظهر ظِلّه على الحائط، ظهر وهو ينزع تلك القلادة التي لا تفارقه، وبدأ جسده في التلوي ليبدو في الظِلّ وكأن جلده يتساقط وصوت زمجرة ألم يخرج منه حتى ظهر ظِلُّ المولى وقد افترشه جناحين عظيمين.

***

اتسعت حدقتا عابد بعد أن قال له ذلك المدعو صهيل إنه كـــان ينتظره، ظَلّ الصمت سيد الحديث فترة طويلة ينظر صهيل إلى عابد مبتسمًا دون أن يتحدث وعابد تعتري وجهه علامات استفهام كثيرة في انتظار أن يكمل صهيل حديثه.

– هناك أسطورة قديمة تقول يا عابد..إن هناك حارسًـــا لـــذلك السجن الملعون.

– حارس.. وأين هو؟

– لا تكن ساذجًا، ودعني أكمل. حارس من الجان وهو يقبع في ذلك المكان المظلم وأنك إذا قدَّمت له القربان سوف يعفـــو عنـــك ويظهر لك المخرج من ذلك المكان.. ويقال إن باب الخروج يقبع في نفس مكان وجود الحارس، وأن من يحاول أن يخرج دون أن يُقـــدِّم قربانه فيكون مصيره مثل ذاك الشيخ البائس.

– وكيف يمكن أن نقدم له ذلك القربان؟

– سوف نُقيِّده بتعويذة حتى لا يؤذينا بعدها ونستطيع أن نخرج من هنا.

– ولماذا تنتظرني أنا لفعل ذلك؟

– أنا لستُ على علم بأمور السحر، ولكن أنت من تستطيع ذلك.

– أنت على خطأ.. أنا على علم بها، ولكن لا أستطيع أن أمارسها.

– يجب أن تحاول.. حتى تنال حريتك.. ألم تدّعي أنك مظلوم.

– بلى.. مظلوم.

إذن يجب أن تحاول.. يجب ان تخرجنا من هنا.. فأنت ابن الشريف. ابن الساحر الأعظم.. والأسطورة تقول أن الوحيد القادر على اخضاع الحارس هو ابن الساحر الأعظم.. هو أنت يا عابد.

إن في ذلك الموضوع مخاطرة كبيرة.

ألديك شيء تخسره.. من الممكن أن تعيش اليوم، ولكنك لن تستطيع غدًا.

ذهب صهيل وترك عابد يفكر: هل من الممكن أن يفعل ذلك الأمر.. هل من الممكن أن يمارس عمل عائلته الذي طالما بغضه ليكون

سببًا في خروجه من تلك المحنة؟ هل من الممكن أن يرى ميرا مرة أخرى؟ كان الأمر من وجهة نظره يكاد أن مستحيلاً، ولكنها تجربة تستحق المخاطرة.

كانا الخوف والقلق ملازميْن دائمًا لعابد، ولكنهما ازدادا داخل ذلك السجن، تحسس بيده جيبه الصغير الذي وضع به الخاتم، اعتراه شعور بالنفور، وظَلّ صامتًا، فالصمت في ذلك المكان أمر واقع وحتمي وصديق سجين قارا، تنظر في أعين هؤلاء الأشخاص فتجدهم صامتين، ولكن خلف ذلك الصمت كلمات كثيرة لا يجدون من يشاركونهم إياها.. كل هنا يخفي شيئًا ما في قرارة نفسه كل هنا يوصل إحساسه للآخر بالصمت، أدرك عابد شيئًا لم يكن يدركه أن الصمت في بعض الأحيان يعبر عن الألم أكثر من الكلمات.

صوت بوق مزعج خطف عابد من شروده وهو لا يعلم ما معنى ذلك نظر إليهم فوجدهم يتجهون ناحية الفوهات الكبيرة توجَّه معهم وهو لا يعلم ما وراء تلك الخطوات، كان ذلك البوق يعني أنه حان وقت الطعام للسجناء فمن كل فوهة كان ينسدل حبل في آخره ما يُشبه الصحن الكبير، محكم الربط جيدًا به بعض اللحوم وبعض أنواع الفاكهة.

نَظَرَ عابد للطعام بسخرية وتعجب من شكل الطعام وطيبته، انهمر الجميع على الطعام وبدؤوا في التصارع عليه جلس عابد يراقبهم وهم

يلتهمون طعامهم، شعر أنهم يطعمونهم جيدًا حتى لا يستاء الموت حين يأتي من هزالهم أو ضعفهم، أو ربما يطعمونهم بتلك الطريقة حتى يستمتع ذلك اللاشيء القابع في الركن المظلم ففي النهاية يبدو أنهم يريدون أن يقدموا للموت وجبة دسمة.

قرَّر عابد أنه لن يكون طبقًا على تلك المائدة التي تقدم يومًا بعد يوم للموت، قرَّر أنه سوف يخرج من هنا، عليه أن يحاول، يجب أن ينجح حتى يثبت للمولى أنه يستطيع، وأنه سوف يتزوج ابنته رغمًا عنه، شعور بسيط يتملكه في الانتقام من ذلك الرجل الذي يحكم قبضته على البلاد.

***

انتهيت من تجرُّع ذلك الكأس، وأشرتُ بيدى إلى الساقي أن يُعيده كاملًا مرة أخرى في محاولة للنظر إلى تلك الراقصة التي تؤدي حركات بهلوانية، وهي شبه عارية لم تتضح الرؤية فجسدها العاري لم يكن يشغلني في يوم ما، ولكنك حين تنظر لتلك الأفواه المفتوحة واللعاب الذي يسيل منهم رغبة في قبلة أو آخر يرغب في تحسس ذلك الجسد تدري أن هؤلاء البشر لا يستحقون العيش.

وقفت بعدها بصعوبة بالغة فقدماي لا تقويان على حمل جسدي، وبدأت في التحرُّك تجاه تلك الراقصة وأنا أترنح، وقفت بجانبها فهدأت الموسيقى في الحانة، ونظرت لوجهها خائفة، يبدو أنها ظنَّت أني سوف أُقدِم على فعل شنيع ولكنني كما أوضحتُ لا يشغلني جسدها العاري، حاولت أن أسجمع كلماتي وعلا صوتي قائلًا:

إن لم تخرجوا من ذلك المكان سوف أصيبكم باللعنة عن طريق سحري الأسود.. عودوا إلى بيوتكم إلى زوجاتكم وأطفالكم.. وفروا النقود لترعوهم.. أفضل من النظر إلى تلك الراقصة وجسدها العاري..

لم أشعر بشيء سوى لكمة من أحد الرجال الذين يعشقون تلك المرأة وسقطت أرضًا وساد الظلام من حولي.

بعد بضع ساعات بدأت الرؤية في الوضوح، كنت أجلسُ داخل منزلي الذي تعمه الفوضى، فمنزل دون امرأة يصبح ملجأ لكل ما يصنف بالقمامة، أدْعَى الخليل أربعيني العمر، وكنت أعدّ من أفضل الشباب في مكناس، وكنتُ أملك بيتًا وأسرة وكانت لي زوجة وابنة ولكنهما قررتا تركي لعدم توقفي عن الشراب، مما زاد الأمر حيث أصبحت أقضي معظم أوقاتي في الحانة أشرب من الخمر ما استطعت وينتهي الأمر بلكمةٍ أو صفعة تفقدني الوعي، هذه هي حياتي التي أرجو أن انتهى منها.

حسنًا ها هو الحبل الذي أحكمت ربطه في حلقة السقف على شكل دائرة تناسب رقبتي،وقفت على الكرسي وقد ثبتها جيدًا، وهأنا الآن أضرب ذلك الكرسي بقدمي حتى أُفارق الحياة.

***

كان عابد وصهيل وقد عزما على أن يحاولا استمالة حارس السجن، ولكن كان ينقص التعويذة شيء مهم للغاية، حيث أخبره صهيل أنه يجب أن يكون هناك قربان بشري حتى تتم تلك التعويذة وقد طمأن عابد أنه سوف يحضر ذلك القربان الليلة حتى تتم المهمة.

بالفعل أشار صهيل إلى ذلك الراجل الكفيف الجالس وحيدًا وأقنعه صهيل أنه رجل وحيد، وبلغ من الكبر عتيًّا، وأنه عاجلًا أم آجلًا سوف يموت، ولكن من الأفضل أن يكون موته ذا فائدة.

جلس عابد وصهيل في بقعة فارغة من السجناء ومعهما ذلك الكفيف وقد تحمس عابد للفكرة، وبدأ في استرجاع تعاليم والده، وبطريقة ما كان صهيل يملك ما يشبه الطبشور الأحمر وأعطاه الورقة التي بها التعويذة التي ستساعده على الخروج من ذلك المكان.

أخرج عابد الخاتم من جيبه الصغير،نَظَرَ صهيل إلى الخاتم واتسعت عيناه، ولكنه لم يتفوَّه بكلمةٍ، ظلّ ناظرًا إلى عابد الذي كان مترددًا في وضع الخاتم في إصبعه، ولكن بعد تردد كبير ومعاناة وضع عابد خاتم الشيطان في يده اليسرى، لينبعث ضوء أحمر من الخاتم، ويشعر أن الخاتم هو الذي يُحكم قبضته عليه، بدأت تلك العين في منتصف الخاتم بالتحرك والنظر في كل مكان وكأنها تبحث عن شيء ما حتى نظرت في عين عابد الذي أنفاسه في التسارُع، وشعر بألم يجتاح جسده وخصوصًا يده، وبدأ في الصراخ حتى أُغشيَ عليه.

بعد فترة قصيرة أفاق عابد، وجد صهيل يجلس أمامه يتفحصه وكأنه كان يحاول أن يجعله يفيق، نهض عابد مسرعًا ونَظَرَ إلى يده فوجد الخاتم وقد شعر بقوة غريبة تسري في جسده، أمر صهيل أن يتراجع ودون تردُّد أمسك بالطبشور الأحمر، وبدأ في رسم الشكل داخل الورقة دائرة كبيرة، وداخل الدائرة رسم مثلثًا مقلوبًا، وعند رأس المثلث كتبرقم **900**، وعند الزاوية اليسرى كتب رقم **1** والزاوية المقابلة كتب رقم **40**.

أحضر صهيل ذلك الكفيف وبقلب بارد جزَّ عنقه بتلك السكين التي لا يعلم عابد من أين أتى بها، ودبَّ عابد يده في تلك الدماء ثم كتب في نصف المثلث رقم **941** نظر للرسمة داخل الورقة أصبحت مطابقة للتي رسمها هو، ثم نهض وبدأ في قراءة التعويذة باللغة الفارسية:

"من به صلح در ظام آمد از شما درخواست براى پذيرش اين ساده نسبت به قربانى است كه اجازه مى دهد تا من به تصويب مى شود و موضوع به مرجع من به پايان رسيد از اين محدوديت ها شما بايد آنچه را كه مى خواهيد از إنسان حتى انرژى خود را احضار و تغذيه گارد خود را من بنده تو و فرزند سرور شما هستم شما نجات من هستند و من نجات شما هستم در زندان عجل عجل وحا وحا ساع ساع".

انتهى عابد من قراءة التعويذة، فسمع صوت صرخة عالية تأتي من المكان المظلم، نظر في ذلك المكان فوجد كائن أسود ضخم مقيدًا، وعلى قيوده حُفِرت طلاسم تشعُّ ضوءًا أحمر وبدأ الكائن في الصراخ، وبدأت القيود في التفكك وقد نادى بصوته الأجش وصرخ باسم الرجل الذي ألقى تعويذة الأبطال ليُحرره من قيده (عااااااااااااابد).

تجمع السجناء على أثر تلك الصرخة التي اهتزت لها جدران السجن وعندما تجمع أكبر عدد منهم بدأ الظلام يأخذهم شيئًا فشيئًا وواحدًا تلو الآخر، وخُيِّل إلى عابد أنه كان يسمع صوت عظامهم تتهشم، وكأن أسنانا تحطمها، غزت رائحة الدماء المكان، نظر عابد تجاه صهيل فوجده ساكنًا لا يتحرك مُتخذًا وضعية الركوع، لم يفهم ما المغزى من ذلك.

بدا ذلك الصوت ينادي باسمه مرة أخرى وقد ارتجف قلب عابد، فقد أصبح المكان شبه خالٍ من السجناء لم يبقَ سواه وصهيل الراكع ورائحة الدماء وذلك الصوت الرهيب، هدأت الأصوات، علت الدماء حتى وصلت إلى أقدام صهيل وعابد الذي بدأ في سماع صوت خطوات هادئة تتقدم ناحيته، لم يشعر بشيء إلا بتلك اليد المكسوة بالشعر ومخالبها الطويلة تقبض على عنقه، وصهيل مبتسم لأنه رأى سيدة بعد فترة طويلة وقد حرَّره عابد من قيده، حرَّر القط الأسود (الظام).

ظلت رئتا عابد تحاولان التقاط أنفأسهما إثر قبضة ذلك الكائن الذي ظهر أمامه، ظلت عيناه متعلقتين بتلك العيون السوداء القاتمة والأنياب التي تصدر من خلالها زمجرة، كاد عابد ان يختنق لولا أن لاحظ الظام ذلك الخاتم الذي يرتديه فتركه مسرعًا وبدأ عابد في السعال محاولًا التقاط أنفاسه واستجماع قواه مرة أخرى.

نظر ظام إلى يديه التي هربتا من القيود ثم نظر إلى صهيل الراكع أمامه في خشوع واضح حتى قال الأخير:

– مولاي القط الأسود.. في خِدمتك وطاعتك.

– أنت من أنقذتني يا صنهور؟ اعلم أن مكافأتك عندي.

– إن مكافأتي أن يُحقّق مولاي انتقامه.

– من أين لك بهذا الخاتم؟

قالها مُوجِّهًا كلامه إلى عابد الذي ابتعد عن ذلك الظام وجاهَدَ قائلًا وهو يستجمع قواه.

– أ.. أ..أعطاه لي أبي..الشريف.

– أنت من قرأت تعويذة الأبطال لقد أرسلك والـــدك لتفــك قيدي.. لقد أكمل الشريف عهده معي.

نهض عابد من موضعه وقد أصبحت الأمور غير واضحة تمامًــا، وحاول أن يفهم من ذلك القط الأسود ما يريد قوله.

– ماذا تقصد ب (أرسلني)؟

– هذا هو العهد القديم بيني وبين والدك الشريف.. أعطيته القوة ولكن أمامها مقابل زوجته.

– أمي.. ماذا فعلت بأمي؟

– لقد كانت قُربانًا وذلك الخاتم الذي ترتديه هو المساعد الأول لإنجاح تعويذة الأبطال وقد ذهب صنهور له أو صهيل كما تعرفـه وأخبره أنه حان وقت اكتمال العهد وأنه يجب أن يحررني.

– أتريد القول إن والدي كان يعلم أنني سوف آتي هنا.

– أنا لم أطلب منه إرسالك، ولكنه فضَّل أن يُضحي بك أنت لا بنفسه..بشر.

– أنا لا أصدق ما أسمع، وأين والدي الآن؟

– لقد هرب يا عابد.. إنه الآن بعيد عن عالمكم.

– لقد كان يعلم عندما أتى رجال المولى.. إنني لن أذهب معه ولن أقفز داخل تلك الحفرة.. كان أبي يريد أن يزجُّ بي هنا، ولكن لماذا؟ لماذا أنا؟

– لأنك لست بولده.

– ماذا تقول؟

- أنا والدك يا عابد.

قالها الظام وقد قفز صهيل من مكانه وعابد ظَلّ صامتًا ناظرًا بعين وفم مفتوحين لما وقع على مسمعه، ثم أردف ظام قائلًا:

- واحد فقط يستطيع التحكم بذلك الخاتم، وعليه أن يكون من نسل الشياطين، وأنا كانت خطيئتي أني عشقت بشرية، وقد أنجبت لي طفلًا مُدنَّسًا نصفه شيطان ونصفه إنسان.. كنت أظنُّ أن زنقط قتله ولكنه يقف أمامي وأنقذني الآن.

- ومَن زنقط هذا؟

- إنه أخي.. الذي سوف أقتله، حتى أستولي علـــى صـــولجانه بمساعدتك يا بني.

- بني!

قل لي:

- ماذا تريد؟ بماذا تحلم؟

لم يعرف عابد ما الذي يمكن أن يقوله بعد ما سمع، إنه ليس بشريًّا أو على الأقل نصفه ليس بشريًّا، أستنتج الآن لماذا ضحى به الشريف في ذلك الأمر لأنه لم يكن له أي مشاعر من الأبوة.

نظر إلى الخاتم في يده وبدأ في تذكُّر كل شخص عامله بقسوة منذ صغره، هشام وأبوه حتى المولى إبراهيم شعر أنه الآن أمامه فرصة أن يُعوِّض ما فعلته به تلك المدينة وحاكمها وجَّه نظره إلى الظام قائلًا:

– أريد القوة.. أريد الانتقام.. أريد أن أقضي على مكناس.

ابتسم القط الأسود ابتسامته الخبيثة ثم عقب قائلًا:

– لك ما تريد.

مَدَّ الظام حوافره ناحية عابد الذي بادره الآخر بيده مسرعًا، وأيديهم تشعُّ ضوءًا أحمر، وكان كلٌّ منهما ينظر إلى الآخر مبتسمًا على الرغم من الألم الذي شعر به عابد، ولكنه كان لا يضاهي الألم داخل قلبه، فقط سيطر شعور الانتقام على أي شعور آخر بداخله، اقترب الظام من وجه عابد، وكان لعابه يسيل على الأرض وزمجرته منتظمة مع صوت تنفسه وقال:

– استدعِ أي كائن كان تراه قويًّا ليكون عونًا لك.

لم يتردد عابد ووقف على بُعد بضع خطوات من الظام وأغمض عينيه وأحكم قبضتيه بعد أن رفع يد في الهواء وأخرى وجهها ناحية الأرض، وقد حرَّر قبضتيه وكأنه يأتي بشيء ما.

صوت هزات أرضية الجدران تهتزُّ حبات من الرمال والأتربة تتطاير صوت جيوش قادمة في صفوف متنظمة بدًا عابد في الصراخ محاولة منه لجذب تلك الجيوش.

فجأة ظهرت من باطن الأرض جيوش كبيرة من العقارب السوداء والتي تجري لتنتظم في صفوف أمام عابد، وعندما وقفوا جميعًا نحه عابد وسط ذلك الجمع الرهيب، فأشار له فأتى ذلك العقرب مسرعًا وخفض عابد يده ليتسلق عليها ثم صعد إلى كتفه.

ثم أشار لباقي الجيش من العقارب فبدأ في التحرك حتى شكلوا كرسيًّا ملكيًّا في الجدار المواجه لمكان وقوف الظام، تحرك عابد في اتجاه ذلك الكرسي المكون من العقارب، وجلس على هذا الشيء المقزز ونظر إلى الظام وابتسم نفس ابتسامته الخبيثة.

***

انتهت تلك الراقصة من رقصتها المعتادة ثم توجهت إلى غرفتها لترتدي ملابسها، حيَّت صاحب الحانة، وقررت الذهاب بعد أن وضعت قُبلة حارة على جبينه، ثم تحركت قدماها ناحية الباب ومنه إلى الشارع.

الظلام يعمُّ المكان في تلك الساعة المتأخرة من الليل ذلك الزقاق المؤدي إلى بيتها، كانت تسير فيه بخطواتها المترنحة وتتمايل بجسدها الممشوق، سمعت صوت خطوات خفيفة يأتي من خلفها ولكنها أيقنت أنها تهذي لأنها أكثرت في الشراب تلك الليلة.

تابعت سيرها وهي تلعن ذلك الشاب الذي كل ليلة يقف ويدعي أنه ساحر وسوف يمس الناس بسحره فيلكمه أحدهم، ضوء خافت يأتي من نهاية الزقاق الصغير يتحرك داخل ذلك الضوء خيال لعقرب صغير، ولكن الخيال ضخم على ذلك العقرب.

وقفت الراقصة وهي تحاول تخطي ذلك الموقف فإنها تعلم أنه مجرد عقرب لن يؤذيها لو تحاشته، تابعت التقدم في خطوات هادئة، حيث

يقع منزلها على بُعد خطوات فقط، ولكنها فجأة تحت ذلك العقرب الصغير يقف أمامها ويتبعه جيش كبير من نفس فصيلته ويتزايد عددهم، بدأت في الصراخ عندما رأتهم يتقدمون نحوها ثم ركضت في الاتجاه المعاكس للعودة مرة أخرى ولكنها فوجئت بجيش آخر يكاد يكون أكبر عددًا انقضوا عليها و هي مستمرة في الصراخ تكاد تسمع صوت العقارب، لم تكن تلدغ الفتاة، إنما تلتهمها.

***

داخل إحدى البيوت الهادئة في تلك الساعة بدأ الرجل في تناول طعامه وقد جلس على مائدة ووضع أمامه الصحن بعد معاناة في ذلك اليوم الطويل من العمل الشاق، حيث أبسط أمانيه أن يعود للبيت، ليجد ما لذ وطاب من الطعام.

بدأ في تناول الطعام بشراهة كبيرة، وبسرعة حتى يفرغ من طعامه وينام ليستيقظ فجرًا ليبدأ يوم عمل جديد، تذكر أنه لا يوجد ماء على المائدة فنهض مسرعًا حتى يحضر كوبًا من الماء ليروي ظمأه به.

في تلك اللحظة تسلل عقرب صغير على المائدة وتحرك بخفة وكأنه يعلم إلى أين يتجه جيدًا، بدأ في التقدم بلونه الأسود ثم صعد إلى الصحن، وبدأ في دسِّ سمه عن طريق ذيله الذي توجد به الإبرة التي تحتوي السم ويبدو أنه لم يكتفِ بذلك فقد بدأ وكأنه يُفرغ ما في جوفه ليظهر سائل شفاف يختلط بالطعام ثم هرب مسرعًا.

جاء ذلك الرجل مسرعًا وهو يتجرع الماء ثم جلس ليكمل طعامه وهو يمدح زوجته لتقديمها له مثل هذا الطعام الطيب.

بينما كان الوزير جالسًا لينجز بعض الأعمال التي كلفه بها المولى داخل الحجرة الخاصة به، مرتديًا ما يطلقون عليه الجلباب المغربي، كان طويل القامة ذو ملامح جذابة تميزه رأس صلعاء، يتمتع بهيبة ووقار تضاهي هيبة المولى نفسه، وعندما وقف اتضح جسده العريض وعضلاته التي تملأ جسده، تحرَّك إلى النافذة أمامه، أزاح تلك الستائر ليدخل شعاع الشمس ويلمس وجه الخمري فأغمض الوزير كلتا عينيه وقد علا صوت شهيقه للهواء وكأنه يعبر عن مدى استمتاعه بهواء تلك المدينة.

قَطَعَ استمتاعه بتلك اللحظة دخول أحد الجنود عليه مهرولاً حتى كاد أن يسقط من شدة اندفاعه وتوقفه فجأة مما أثار انتباه الوزير ونظر للجندي،فوجد قطرات العرق تسيل منه كالأمطار وبدأ الجندي في محاولة التقاط أنفاسه، فأدرك الوزير أن ما سيلقى على ما مسمعه لن يكون خيرًا أبدًا.

- ماذا بك يا غلام؟

- سيدي الوزير راغب..إن شوارع المدينة تهلك.

- ماذا تقصد.. فلتهدأ وتتكلم.

- عقارب يا سيدي تغزو البيوت وتقتل النــساء والأطفــال.. الناس جُن جنونهم.

- عقارب!

- نعم، والناس جُنَّ جنونهم يقتلون بعضهم البعض، الأب يقتــل أبناءه والأم تدفن صغارها.

- بأي جنون تنطق أنت؟

- فلتأتِ يا سيدي معي.. إن مكناس تهلك.

هرولَ راغب مسرعًا خلف ذلك الجندي وهو لا يعلم ما يقول ذلك المخبول كما وصفه قفز مسرعًا على صهوة جوادة وبدأ يعدو إلى داخل قلب المدينة على يمينه ويساره بيوت تحترق وأشخاص تنساب الدماء من وجوههم، وآخرون يعدون في الشوارع ويرددون كلامًا غير مفهوم، أيقن أن ذلك الغلام لم يكذب، وأن مكناس تهلك.

***

وقفت بعد أن انقطع ذلك الحبل الذي تيقنت من ربطه جيدًا في سقف منزلي، إنها المرة السابعة التي أكرر فيها فعلتي، لتبوء محاولاتي بالفشل، إن الموت أيضًا لا يرتضيني عنده.

جلست على الكرسي وقد أمسكت بزجاجة الخمر الموضوعة أمامي على المنضدة، لم أكن على يقين أكنت في تلك اللحظة أهذي من تأثير الخمر أم أن ذلك العقرب الذي يتحرك أمامي في مقدمة جيشه هو حقيقي ولكن لحظة..

إن ذلك النوع قد انقرض، لا، ما هذا؟ إن حجمه يزداد، إن ذلك من فعل السحر الأسود، لا يمكن أن يكون ذلك طبيعيًا أبدًا، وقفت جيدًا، وبدأت في استعادة وعيّ بعض الشيء، ثم بدأت في العدو إلى خارج المترل وصورة ذلك العقرب الأسود لا تفارق خيالي، أدركت شيئًا واحدًا فقط عندما نظرت في عين ذلك العقرب أن مكناس تهلك.

لم أستطع منع نفسي وقررت أنها اللحظة، أنه الوقت أن تصبح فيه معرفتي بتلك الأمور ذات فائدة، أنا أستطيع أن أكون بطل تلك المدينة إن استطعت إنقاذ مدينتي، فحتمًا سوف تراني زوجتي بطلًا، سوف تغفر لي وتعود هي وابنتي الوحيدة وبداية تلك الخطوة تأتي من قصر المولى.

توجهت إلى الشوارع، رأيتُ ما أكدَّ شكوكي، جثث لأناس قد تشوهت ملامحهم، وبعض الجثث يبدو أنه قد تم التمثيل بها، وبعضها يبدو أن لحمها متآكل، وبعض الجثث على جسدها آثار لدغات تلك العقارب،أصبح الجزء الشمالي من المدينة خالي من الأحياء، كان هناك آثار حرائق، قررت أن أبدا من هنا قبل التوجُّه لقصر الحاكم، وقفتُ وكأنني أتحدَّى نفسي وذهبت إلى الجزء الشمالي في السير على أطلال البيوت وروائح كريهة تغزو أنفي، واصلت التقدم علني أجد ما يساعدني حتى وجدتها.

وجدتُها ملقاة في ذلك الزقاق الصغير، إنها تلك الراقصة التي ظننت أمس أني أريد أن أستبيح جسدها لي، ولكن كل ذلك الجمال التي كانت تتمتع به قد انتهى، يا ليت الرجال ذوو الأفواه يرون الجمال بعد ان التهمته تلك العقارب اقتربت منها وجلست بجوارها أبحث عن شيء ما في تلك الجثة، العينان أصبحتا غير موجودتين، لاحظت تجويفًا في الرقبة، حاولتُ أن أرفع بيدى رقبتها ففوجئتُ بذلك العقرب قد قفز من داخلها فسقطت على الأرض وأصبح ذلك العقرب فوقي، أغمضتُ عيني استعدادًا للحظة الموت ولكنني لا أريد ذلك الآن، أيها الموت أبقِ على حياتي فإنني الآن أحتاجُ أن أكون موجودًا لأجل مدينتي، ولكن لم يحدث شيء.

فتحت عيني ببطء شديد فوجئتُ بذلك العقرب قفز من فوقي واتخذ طريقه إلى الرمال، عدتُ إلى قرب جثة الراقصة مرة أخرى وفي استكمال الفحص، رفعت معصمها الأيمن أو بالأحرى ما تبقى منه فوجدتُ ذلك الوشم وقد طُبع على معصمها كالختم الصغير، إنه ختم الشيطان.

***

كان عابد جالسًا على عرشه المُكوَّن من العقارب داخل سجن قارا وقد أصبح السجن أكثر إظلامًا، وقد وقف أمامه صهيل والظام الذي كان مستمعًا بوريث عرشه وولده، اقترب عقربه المفضل فبسط له يده ورفع ذلك العقرب إلى أذنه وكأنه يسمع ما يقول، فابتسم عابد ونظر إلى ظام قائلًا:

- هنيئًا لنا أيها القط الأسود.. فإن مكناس تُدمر الآن.

- لم أكن أتخيل أنك تملك ذلك القدر من القوة.

- بل أكثر من ذلك يا أبي.

- يجب أن يُثير ما يحدث انتباه زنقط.

- لماذا لا نذهب إليه نحن ونقتله؟

- لا يكن تفكيرك محدودًا.. يجب أن يأتِ هو إلينا..صهيل.

قالها الظام لصهيل فأردف الأخير مسرعًا:

- أمر مولاي.

- فلتحرص على أن تكون في خدمة ولدي المدنس.

صدر من الجزء المظلم صوت زمجرة ذلك الوحش، يبدو أنه يعبر عن مدى جوعه، فنهض صهيل مُلبيًا نداءه، وقد ذهب إلى بقعة من السجن بقي بها بعض السجناء، فجرَّ واحدًا من قدميه وهو يصرخ

وقد ألقى به داخل الجزء المظلم، فسمع كل من كان في قارا صوت عظامه تتهشم وأحشائه يعتصرها ذلك الكائن.

***

داخل غرفتها كانت تجلس ناظرة إلى حصانها الأسود، تبدو ميرا ضعيفة جدًّا، تتذكر حبيبها، تفكر فيما حدث له، تحاول أن تريح قلبها بأنها سوف تراه مرة أخرى.

شعرت بيد خفيفة تُداعب خصلات شعرها، إنها تعرفها جيدًا، أغمضت عينيها وفي الاستمتاع بتلك اللمسة المميزة، وضعت يدها على تلك اليد فتحسست خاتمًا غليظًا فانتفضت ونظرت خلفها لتجد عابد واقفًا.

ظنت في البداية أنها تحلم لأنه من المستحيل أن يحدث هذا، وجدته يقف وقد بدا مختلفًا تمامًا، وجهه أصبح أكثر سوادًا، عيناه تبرزان أكثر من بين جفونه، تشعر لحظة أنهما من الممكن أن تُضيئا في الظلام.

وقفت ميرا وبدأت في الاقتراب منه، تحسست بيدها وجهه ودموعها تنهمر، وارتمت في أحضان حبيبها عابد، ولكنها فوجئت أنه لم يبادرها بنفس الحضن، أدركت أن هناك شيئًا ما خطأ، رجعت إلى الوراء وهو ما زال ناظرًا لها تلك النظرة الجامدة الخالية من المشاعر نظرة لم تعتدها ميرا.

– عابد أهذا أنت؟

– نعم يا ميرا.. إنه أنا.

– ما الذي حدث لك؟

– أدركتُ حقيقتي.

– أي حقيقة؟

– من أنا، أدركتُ ما أنا قادر على فعله.

– أنت لا تدرك شيئًا.. لقد أصبحت لا تحبني.

– أنا لم أتوقف يومًا عن التفكير بك.

– كيف خرجت من قارا؟

– إنها قصة طويلة ولكنني سأعود له.

– لا تتركني يا عابد.

– إذًا فلتأتين معي.. أنا قوى الآن، سأكون قادرًا على حمايتك.

– أنا لا أفهمك، ما الذي تغير بداخلك؟

قالتها ميرا بغضب فنظر لها عابد بحدة مما أرعبَ ميرا وفي ثوانٍ معدودة اهتزت إضاءة الغرفة وجاء ذلك العقرب من العدم، وبدأ في الاقتراب من ميرا التي لم تقوَ على الصراخ من شدة خوفها، تنبَّه عابد إلى ما هو مُقدِم على فعله فصرخ مسرعًا:

– توقف.. أنا لم آمرك بذلك.

توقف العقرب وعاد إلى عابد الذي حمله ووضعه في جيبه.

- أتريد أن تقتلني؟

- لا، أنا أريد أن أقتل والدك.

- أنت المسؤول عن كل ما يحدث، أنت الذي تتحكم بتلك العقارب.

- سوف أقضي على والدك ثم مكناس، يجب أن تأتي معي، أنا طوق الوحيد.

- لقد تغيرت يا عابد.. لست أنت الذي أحببته.

- إنها فرصتك الأخيرة يا ميرا أن تكوني معي أم ضدي.

- سوف أكون في صفِّ مكناس.

- سوف تنتهي مكناس عما قريب.

- أنت ضعيف يا عابد.. كنتَ تعترض على تلك الأمور التي يمارسها والدك، والآن أصبحتَ أنت نفسك بارعًا بها.

- إنه ليس بوالدي.. أنا لستُ ببشري، أنا كائن أسمى.. انا ابن الظام شيطان غير شرعي.. أملكُ من القوة ما شئتُ، لا يستطيع أحد أن يقف في طريقي من يقف أمامي سيكون الموت مصيره الوحيد.

- إذا لمستَ أبي لن أسامحك يا عابد.

- سوف أقتُله دون أن يراني، سوف أدمر كل ما يحبُّ.

في تلك اللحظة سمعت ميرا صرخة مدوية مصدرها أمها كـــترا، فشهقت ميرا، فوجدت عابد يقف مبتسمًا وقـــد أشـــار بخاتمـــه إلى النافذة، فوجدت جيشًا من العقارب يدخل مسرعًا وتوجَّه ناحية عابد وبدأ يغطيه بالكامل حتى اختفت العقارب ومعها عابد.

كانت الخادمة قد انتهت من تزيين سيدها كترا، وبعد أن وضعت لها الحُلي أمرها أن تذهب، نهضت كترا وذهبت إلى المرآة، وطالعت مفاتنها وتحسَّست وجهها وهي تردد كلمات تعبر بها عن مدى جمالها وأنها السيدة الأولى، وأن جميع نساء المدينة تغار من جمالها، ثم ذهبت إلى سريرها واستلقت عليه.

هنا بدأ ذلك العقرب يتسلق الجدار حتى وصل إلى النافذة ومنها إلى الأرض، نظر بعينيه، فوجد كترا نائمة، بدأ التوجه إليها، تعلق بالملاءة حتى وصل إلى القمة، قرَّر الصعود على جسدها، شعرت كترا بشيء صغير يسير عليها فنظرت فوجدت العقرب أمامها فأصدرت صرخة مدوية فقفز العقرب مسرعًا داخل حلق كترا وسقطت هي الأخرى مغشيًّا عليها.

ركضت ميرا مسرعة إلى غرفة والدها، وعندما وصلت وجدت الخدم يقفون خارج الغرفة، فمرت من خلالهم وهي تهرول مسرعة فوجدت المولى ومعه الطبيب يفحص حالتها وقد أمسك بالملاءة ووضعها على وجهها فسقطت ميرا مغشيًّا عليها.

لم يستطع المولى أن يصدق ما حدث، وأن الحوادث التي تحدث في مكناس أمر غاية في الغموض، لا يوجد تفسير له سوى تفسير الطبيب الذي أخبره أنه وباء يجتاح البلاد وأنه لا يوجد له في وصفاته علاج.

استدعى المولى راغب الوزير وجلسا معًا في حديقة القصر وقد بدأ على المولى الإعياء الشديد والحزن إثر ما تتعرض له البلاد وما حدث لكترا، فلم يتوقع يومًا أن تفارق الحياة بتلك الطريقة.

تحدث مع الوزير متمنيًا أن يجد لديه تفسيرًا أو حلاً لما يحدث.

– عزائي الشديد لك يا مولاي.

– أهناك أي بلدان أخرى أصابها ذلك الوباء؟

– لا يا سيدي.. فقط مدينتنا.

– كيف يكون سم عقرب مسؤولًا عن كل تلك العواقب؟

– اعتقد أنني أملك الشخص الذي سيساعدنا.

– مَن يا راغب؟ بحق الصداقة بيننا..ساعدني على إنقاذ مدينتي.

– ولكنك لن توافق على ذلك.

– مَن يا راغب؟

– إنه ساحر يُدعى الخليل.

– ساحر.. أجننت.

– يا مولاي فلتستمع لما يقول أولًا.

- وأين ذلك المشعوذ؟

- لقد أتى اليوم إلى القصر وأراد أن يقابلك.. إنه ينتظر أن آتي به.

- حسنًا.. فليأتِ.

أمر راغب الحارس أن يأتي بالخليل، فظهر شابٌّ طويل القامة، مفتول العضلات، يتمتع بعينين سوداوين، شعره أسود قاتم إلا من بعض الشعيرات في مقدمة رأسه التي استولى عليها الشيب الأبيض، يرتدي جلبابًا مغربيًّا.

انحنى الخليل أمام المولى، فأذن له الأخير بالجلوس بعد أن أشار لراغب أن يجلس أيضًا، ظلَّ المولى يتفحص الخليل وهيئته، في حين أن الآخر كان واضعًا نظره لأسفل لأنه في حضرة المولى حاكم مكناس والمغرب، فبدا الحاكم قائلًا:

- آتني ما عندك؟

- مولاي، إن المغرب تتعرض لأبشع أنواع السحر.

- لا يوجد سحر في مدينتي.

- بل يوجد يا مولاي.

- أخبره يا خليل بما أخبرتني به..

قالها راغب.

- حسنًا..إن تلك العقارب التي تغزو المدينة هي نوع أصبح منقرضًا منذ مئات السنين.

- ومن أين أتى إذًا؟

- ذلك النوع يسمى عقرب البحر.

- ماذا؟

- عقرب البحر سيدي يُقال إن طوله كان يبلغ مترين ونصفًا، وأنه كان من العقارب المفترسة، ولكنه لم يتمتع يومًا بهذا اللون الأسود، ولم يكن بهذا الحجم الصغير.

- ماذا تقصد بجملتك الأخيرة؟

- أقصد يا مولاي أنه أصبح لديه القدرة على التكيّف وتغيير حجمه كما يشاء، وهذا لا يحدث سوى بفعل تعويذة تسمى الاستدعاء، يمكننا من خلالها استدعاء كائن حي لو كان منقرضًا ليصبح طوع خدمتنا.

- أتقصد أن هناك مَن يتحكم بها؟

- بالطبع مولاي، وأنا أستطيع أن أساعدك ولكن..

- ولكن ماذا؟

- أريد أن أتفحص جثة زوجتك.

نهض المولى غاضبًا وقد أمسك بعنق الخليل فأسرع راغب محاولًا أن يخلص الساحر من قبضة المولى وبعد ان نجح في ذلك بدأ يسعل فقال المولى غاضبًا:

- أجننت أيها المشعوذ؟ لن تلمس زوجتي.

- يجب أن نساعده يا سيدي حتى ننتهي من ذلك الكابوس.

- إنه وأمثاله السبب وراء كل ذلك..اللعنة على هؤلاء السحرة!

- ليس كل السحرة سيئين يا مولاي..البعض لا يشبه الكل.

- يجب ان تنسى ذلك.. لن تلمس زوجتي.

- من المحتمل أن تكون مولاتي على قيد الحياة.

هدّأت تلك الكلمات الأخيرة من غضب المولى، وبدا للحظة وكأنه يفكر في طلب الخليل، ثم اقترب منه وقد ظهر من خلال ملابسه القلادة الخاصة به، فنظر لها الخليل باهتمام حتى قال له المولى:

- أمن الممكن ذلك؟

- دعني أرَها حتى أريح قلبك.

***

داخل سجن قارا وفي قلب الظلام وقف عابد أمام الظام، الذي بدا على عينيه الغضب الشديد، فعيناه السوداوان تتحولان إلى جمرتان صغيرتان من شدة الغضب، أعطى عابد ظهره للظام،وبدأ في التحرك، وبدأت العقارب في تشكيل سلم ثم الكرسي الخاص به فجلس ناظرًا لأبيه مما زاد غضبه قائلًا:

– أُجننت يا عابد؟ لماذا خرجت من هنا؟

– كان يجب أن أراها.

– أنت مثل الطفل الصغير لا تعي ماهيتك.

– أنا أعيها جيدًا، ولا تُملي عليَّ أفعالي مرة أخرى.

– إن فعلت ذلك مرة أخرى سوف أقتلها.

– لن تقدر على أن تمس ميرا..أتريد أن تعود لسجنك مرة أخرى؟

أصدر الظام زئيرًا يُعبِّر عن شدة غضبه من تلك الجملة، وبدا كأنه سوف ينقضُّ على عابد، ولكنه استوقف نفسه في اللحظة الأخيرة.

– إن ما يغفر لك كلامك أنك ولدي.

– وإن ما يجعلني أتحمل أعباءك أنك أبي.

– فلتفعل ما شئت يا مدنس.

نهض عابد وتحرك إلى تلك الفوهة الكبيرة، وبدأ في رفع يده في الهواء، وبدأت العقارب في التحرك تجاهه والتجمع حوله، وبدأ عابد يرتفع في الهواء بتزايد عدد العقارب حتى صعد إلى سطح الأرض، ووقف وأخرج طباشيره الأحمر، وبدأ في كتابة تلك الرموز داخل النجمة السداسية، وحين انتهى قال تعويذته:

"باسم كل حكام العالم السفلي، يا من أعطيتم القوة لعصبة السحرة، أنا الساحر الأعظم عابد، آمر كل خدام كل سحرة العالم الراقدين أن يأتوني بقوتهم،أنا المدنس آمركم أن تطيعوني أنا فقط.. امنحوني القوة يا خدام القوة، يا جان قوة الشيطان ظام وأعوانه.. استاش استاش ملوش ملوش شمان شمان".

بدأت الغيوم تتشكل في السماء لتصبح دكناء، أصوات كثيرة تتعالى، وأشعه حمراء تخرج من السماء من كل صوب ونحو تخترق جسد عابد وهو رافعًا يديه وكأنه يحتضن كل تلك الأرواح، بدأ صراخ عابد يعلو وتعتري وجهه ملامح الاستمتاع حتى أصدر صرخته الأخيرة؛ مما أدى إلى ارتعاش قلب ذلك الطفل القابع في رحم أمه في آخر بيت من بيوت المغرب.

***

تعويذة الإرث

دلفت إلى غرفة السيدة كترا التي كانت مستلقية كجثة هامدة أصر المولى أن يكون معي في تلك اللحظة، جلست بجوارها وسحبت ذلك الغطاء من على وجهها الذي وجدته شاحبًا، وكانت شفتاها يغلب عليهما اللون الأبيض، نظرت للمولى ولمحت في عينيه دمعة تريد أن تخرج ولكنه يجاهد في منعها حتى لا تسقط أمامي ويظهر ضعف الحاكم أمام أحد رعاياه.

تحسَّست بيدى جبينها، أُدرت وجهها يمينًا ويسارًا، وعند رقبتها لاحظتُ نفس شكل الخاتم، إنه ختم الشيطان، وبجوار ذلك الختم بدا كما لو أن شيئًا يتحرك تحت جلدها ، متخذًا شكل العقرب، نظر لي المولى بذهول واضح مصاحبًا له اشمئزاز، بدأ ذلك الشيء في التحرك، وأنا أتابعها حتى وصل إلى معدتها،واستقر فانتفض جسد كترا وانتفض معه قلب المولى.

– ما هذا يا خليل؟

– إن مولاتي ما زالت على قيد الحياة كما توقعتُ تمامًا.

– وما الذي بداخلها؟

– إنه عقرب يا سيدي..إنه يبقيها ساكنة.. لو كان يريد أن يقتلها لقتلها من البداية.

– وما العمل إذًا؟

– يجب أن نبحث عن علاج.

– سوف أستدعي أمهر الأطباء.

– نسيت أن أُخبرك يا مولاي أنني في الأصل طبيب.. اترك الأمر لي.

– لك ما تريد يا خليل..اعتبر هذا قصرك، تجوَّل به كيفما تشاء.. ولكن اشفِ لي زوجتي.

– أعدك أني سأحاول جاهدًا.. فقط دعني أُكمل فحصها.

اقتربت أكثر من كترا بعد أن طلبت من المولى أن يبتعد قليلًا ثم وضعتُ يدى على جبينها وأغمضت عيني وبدأت في التمتمة بكلمات لم يفهمها المولى وجفوني ترتعش حتى فتحت كترا عينيها وصرخت، فنظر المولى إلى معدتها مكان قبوع العقرب فوجده يتحرك بسرعة فائقة ويبدو أن حركته السريعة تؤلمها.

بدأ في الصراخ يريدني أن أتوقف، ولكنني لم أُعِره أي انتباه، بدأ في التحرُّك تجاهي في غضبٍ عازمًا على أن يُوقفني بالقوة، كانت صرخات كترا تتزايد، شعرت بوجود أناس كثيرين في الغرفة، نظرتُ إلى المولى فرجع خائفًا بعد أن رأى تغيُّر لون عيني اللتين أصبحتا بيضاوين تمامًا.

نظرتٍ في أنحاء الغرفة مرة أخرى فوجدت أناسًا كثيرين وأدركتُ أن المولى لا يراهم، أنا فقط من أراهم، أثار انتباهي ذلك الشاب الذي يقف في مقدمة السرير، هزيل الجسد، عيناه متسعتان وتلمعان في الظلام، ابتسامته تنمُّ عن مدى خُبثه، لاحظت وجود ذلك الخاتم في يده اليُسرى.

بدأ يوجه الخاتم ناحيتي، لأشعر باختناق شديد وهو ينظر لي مبتسمًا أنا الآن أريد أن أرفع يدي من فوق جبين كترا، ولكن لا أقوى على ذلك، نظرت إلى المولى الذي وجدته ينظر لي مفزوعًا، أريد أن أستنجد به، ولكنه يبدو أنه لا يرى ما أراه بعد معاناة رفعت يدى وسقطت أرضًا وعيني تغمض شيئًا فشيئًا فرأيت ذلك الشخص ذا الخاتم يتلاشى ويختفي، وظهرت من خلفه فتاة جميلة تقف خائفة ويبدو عليها الفزع، مما يزيد من جمالها، إنها أجمل فتاة رأيتها في مكناس.

بدأت في استعادة وعيي وشعرت بيد حنون تُلامس جبيني فتحت عيني شيئًا فشيئًا فوجدتها تلك الفتاة التي رأيتها مسبقًا، نظرت حولي

فوجدتني في غرفه كبيرة من غرف القصر لم أعتد أن أنام على فراش وثير كهذا الفراش، اعتدلتُ في جلستي أعاني من صداع شديد.

كانت الفتاة صامتة لا تتفوّه بكلمة يبدو عليها الحزن الشديد انتظرت طويلًا حتى تتكلم، ولكن دون جدوى، فقررتُ أن أبدأ أنا الحديث:

– أنا الخليل، وأنت؟

– ميرا.. اسمي ميرا.

– لماذا كل هذا الحزن يا ميرا؟

– إن أمي على فراش الموت، وتريدني أن أكون سعيدة؟!

– لا.. لا أقصد، ولكن أنا هنا لمساعدتكم.

– ما الذي حدث أمس؟

– أنا لا أريد إخافتك، ولكن لا تقلقي.

– من قال لك إني أخاف من شيء.. أريد أن أعلم ما سيحدث لأمي.

– لا تقلقي يا رائعة.

– ماذا..رائعة ماذا؟

– هذا هو معنى اسم ميرا.. تعني الرائعة.

ابتسمت ميرا وابتسمتُ أنا بدوري، أحضرت لي كوبًا كبيرًا به شيء ذو لون أخضر وقرَّبته مني.

– تفضل..اشرب هذا وسوف تكون بخير.

– ما هذا الشيء؟

– إنها مجموعة من الأعشاب سوف تساعدك على أن تستعيد نشاطك.

– لا أريد ذلك الشيء، ولكن أريد شيئًا آخر.

– ماذا تريد..لقد قال أبي.. إن لك ما شئت.

– حسنًا..ألا يوجد هنا خمر؟

– إن الخمر لا يدخل بيت المولى .. ولكن..

– ولكن ماذا؟

– سوف أوفِّر لك ذلك.

– شكرًا لكِ ميرا..أنتِ حقًّا رائعة.

هذه هي غرفتك أيها الساحر، وأمتعتك التي أحضرها معك قد وضعتها لك على تلك الطاولة.. أتريد شيئًا آخر؟

– أريد أن أراكِ مرة أخرى.

استأذنت ميرا بالانصراف وقد بدا بعض الاحمرار على وجهها وقد ابتسمت وأرحتُ ظهري إلى الوراء، لقد شعرت أن قلبي بدأ في النبض من جديد، ولكن سرعان ما امتعض وجهي فأنا هنا لمهمة محدده ولي زوجة يجب أن أكون مخلصًا لها.. لا..ميرا..لا أستطيع أن أحبك يا رائعة.

***

تحرك صهيل بخطوات ثابتة داخل السجن، ووصل إلى تلك الغرفة الموجود بها بعض السجناء، وعندما وضع قدمه داخل الغرفـــة دبَّ الرعب في قلوب الحاضرين من النساء والرجال، تفحصهم جيـــدًا ثم نظر تجاه تلك المرأة.

كانت امرأة في الثلاثين من عمرها تتمتع بقوام مشدود، قسماها تحمل كمًّا كبيرًا من البراءة، نظر لها صهيل وقد سال لعابه و أنيابه في الظهور، ثم بدأ وكأنه يحاول أن يتمالك نفسه، تقدَّم ناحيتها وبدأ في جرِّها من تلك الأغلال حتى وصل بها إلى مكان وجود عابد والظـــام ورماها تحت قدمي عابد.

حاولت الوقوف وقلبها يرتجف ودموعها تنهمر تلقائيًّا من شدة الخوف، بدأت في النظر حولها فوجدت ذلك القط الأســـود يقـــف أمامها بنابيه ولونه الأحمر وجسده المشقق، فصرخت المرأة ولكن دون صوت، ثم سمعت صوت ضحكات قادمة من خلفها فتوجه نظرهـــا تلقائيًّا فوجدت عابد وقد أصبح وجهه مائلًا للسواد وعيناه المتسعتان تلمعان مع ابتسامته الخبيثة.

- لا تخافي.. إنه أبي.. فلتهدئي.. تقدمي إليّ الآن.

- ظلت واقفة دون حراك ودموعها تتساقط.

- اقتربي فإن ساعتك قد حانت.

- تسارعت أنفاسها وأصبحت قدماها لا تستطيعان حملها.

- سآتي أنا إليك إذًا.

- وبدأت في التراجُع إلى الخلف مع كل خطوة يتقدمها المدنس.

- يجب أن تساعديني أن أكمل ما بدأته.

أصبحت ملاصقة الجدار.. فصرخ عابد غاضبًا:

- توقفي الآن يا امرأة.

اقترب منها عابد وأمسك بعنقها ثم أمسك عقرباً بيده وبإبرته جزَّ عنقها فانسابت الدماء على الأرض وتحركت في ممرات صغيرة على نطاق كبير وواسع في الأرض، وارتسمت على شكل دائرة بها مثلث كانت هي عند رأس المثلث، والزاويتان الأخريان بهما جثتان تنساب الدماء منهما أيضًا، بدأ الظام في التحرُّك إلى داخل تلك الدائرة حتى وقف في المنتصف، وتحركت مجموعة من العقارب تجاه عابد وشكلت هرمًا عند رأسه كان عابد واقفًا، الذي ارتفع على تلك العقارب أمام مكان وقوف الظام وبدأ في التمتمة:

"من سر من، من فرماندار جادوگران عابد به شما فرمان واقعا قدرت من به پدرم كه تايدو چه او را دزديدند ومي خواست اورا با قرمز عصاى خود را نشان داده. فداكارى تكميل سه زن با هم ازدواج نكرده است. به شما امر فرموده كه شما او قدرت را به قدرت داند كه در آن زنقط و طول مى كشد آنچه حق او بود به راست قيحرلا راست يليحرلا راست يبرغملا راست وحا وحا عجل عجل ساعة ساعة".

اقتربت الدماء إلى المنتصف مكان وقوف القط الأسود حتى لامست أقدامه، وبدأت في الصعود على جسده فبدأ يشعر بنشوة عالية وتسارعت أنفاسه، وبدأ جسده يتغير إلى اللون الأسود وبرز جناحاه مرة أخرى، وفجأة اشتعلت المشاعل على الجدران لتضيء للمرة الأولى منذ عقود سجن قارا لتتضح معالمه التي تبث الرعب في قلوب الناظرين.

فتح الظام عينيه وبدا السواد واضحًا ثم تحرك تجاه عابد ووضع حوافره على كتفه وابتسم وقال:

– لم أخطيء حين أعلمتك بتعويذة الإرث..لقد أصبحت أرواح السحرة الذين كانوا عونًا لنا وكنا عونًا لهم بداخلك الآن.

– والآن يا أبي.. بماذا تشعر بعد أن اسعدتَ قوتك؟

– أشعر بقرب الصولجان من هنا.

– وزنقط يا ترى بماذا يشعر الآن؟

– يشعر بالوهن يا مدنس.. يجب أن يكون مستعدًّا لملاقاتي.

نظر الظام إلى صهيل ووجد لعابه يسيل تجاه تلك الجثث الثلاث فقد حفزته رائحة الدماء.. نظر لسيده بنظرة رجاء أن يسمح له بأن يتناول عشاءه، فضحك الظام وأشار له بيده معبرًا عن موافقته.

جرى صهيل أو صنهور وبدأ جسده في التغير وتشكّل إلى ذلك الجني الصغير ذي الأنياب ضئيلة الحجم واللون الأخضر وحدقتي العين الواسعتين، وانقضَّ على جثة تلك السيدة ذات الثلاثين عامًا، وبدأ في نهش جسدها والتهامه، وكان يتلذذ بذلك المذاق، وبدأ في ارتشاف دمها، ورفع وجهه لأعلى مُعَبِّرًا عن مدى استمتاعه، وقد كانت الدماء تُغطي وجهه بالكامل، وكان عابد يتابع ذلك المشهد باستغراب، ثم وجَّه كلامه للظام قائلًا:

– ما هذا يا أبي؟ كيف لهذا أن يكون جنًّا؟

– إنه خادم مخلص، واللحم البشري هو طعامه المفضل

– أكل لحوم البشر!

– لقد كان إنسانًا في يوم ما.

– إنسان!

– نعم ولكنه فضَّل أن يأكل لحم بني جنسه.

- أنا أريد أن أستمع لتلك القصة.

- ليس هذا الوقت المناسب يا عابد.

توقف صهيل عن تناول وجبته البشرية حيث كان يسترق السمع لما قاله سيده، تذكر أنه كان بشريًّا يومًا ما، وأنه فضل أن يأكل لحم جنسه ولكنه أيضًا لم يكن بشريًّا عاديًّا لقد كان ملكًا، لقد كان سلطانًا لأحد البلاد، ولكن حظه السيئ جعله يتحالف مع ذلك الشيطان ليكون في خدمته. ترك وجبته وتحرك على قدميه وذراعيه وجلس وأسند ظهره على أحد الجدران، ليعود إلى هيئته البشرية، ويبدأ في تذكر ما حدث له، وأجهش بالبكاء حين تذكر ماهيته.

كان الملك صهيل ينام في غرفته وبجواره زوجته نائمة يجلس على سريره ويفكر في أمور بلاده نهض من على موضع جلوسه وقد ظهرت عضلات جسده وملامحه في الظهور عندما تحرك تجاه النافذة وتلاقى وجهه مع ضوء القمر.

فاتضحت ملامحه وعيناه الخضروان وشعره الأسود القاتم، كان الملك صهيل يتمتع بجمال فاق جمال زوجاته، بل جميع نساء بلدته الصغيرة، جلس على ذلك الكرسي المقابل للنافذة وبرغم ظلام الليل كانت معالم المكان واضحة، كان ينظر إلى تلك البحيرة الصغيرة، فلاحَظَ قُدوم تلك المرأة التي ظلت واقفة وظل هو يتابعها بنظراته معالم وجهها غير واضحة.

سَمِعَ صوت نحيبها، يبدو أنها كانتِ تبكي، وقف وبدأ المشهد يثير اهتمامه، اقترب أكثر من النافذة وكأنه يحاول أن يتبين ملامحها، ولكن فجأة وبدون أي مقدمات قفزت تلك المرأة في البحيرة ففزع قلب صهيل وجرى مسرعًا إلى البحيرة وقد كان نصفه العلوي عاريًا تمامًا.

لم يستوعب من تلك المرأة التي دلفت إلى قصره ليلًا وقفزت إلى بحيرته الخاصة، أمن الممكن أن تكون إحدى الخادمات؟ قرر أن ينادي أحد الحراس وأمره بالنزول والبحث في البحيرة، ولكن الحارس أخبره أنه لا يوجد شيء في الماء.

قرر صهيل أن يذهب إلى نومه وأنه من الممكن أن تكون أصابته هلوسة ما من كثرة التفكير، ذهب إلى غرفته واحتضن زوجته النائمة وغاص في نوم عميق.

استيقظ الملك وتناسى ما رآه ليلة أمس، ارتدى ملابسه وعباءته الحريرة وعمامته وبدأ في النزول من فوق ذلك السلم الرخامي ومنه إلى الرواق الذي قُسم إلى غرف كثيرة وتوجَّه إلى غرفه أبيه التي كانت تقع في آخر الرواق وكانت الغرفة موضوعًا عليها ما يقرب من خمسة أقفال لا يملك مفتاحها سوى صهيل.

بدأ في الاقتراب، ليسمع صرخات أبيه من الداخل، لحظة شعر بالخوف، شعر بعدم الأمان، من الطبيعي أن تشعر بالطمأنينة وأنت في حضرة أبيك ولكن هذا النوع من الآباء لا أظن ذلك.

بدأ صهيل يخرج مفاتيح تلك الأقفال، وفتحها واحدًا تلو الآخر، شعر أن هناك أنفاسًا خلفه وأصوات أشياء تصطدم ببعضها البعض، فنظر فوجد الخادم ممسكًا بالطعام وبعد الأعشاب ذات اللون الأخضر الداكن وقد سقطت بعض الأطباق من شدة ارتجافه لقربه من تلك الغرفة نظر له صهيل وأمره أن يتبعه فنظر الخادم إلى ملكه يرجوه ألا يدخله تلك الغرفة معه فطمأنه صهيل قائلًا:

– لا تخف فإنك معي.. لن يؤذيك.

دلفا إلى الغرفة وقد كانت فارغة تمامًا إلا من سرير فخم كبير تغطيه الملاءة الشفافة تمامًا ومنضدة مستديرة وضع عليها الخادم الطعام كان والد صهيل ينام على السرير وقد كان بلغ من الهرم ما يجعله غير قادرٍ على أن يُحرك أصبعه الصغيرة، التجاعيد تسيطر على وجهه ويده، أظفاره تميل للطول حيث لا يهتم أحد أن يلقمها له، لا يملك شعرًا لا في رأسه ولا حاجبيه.

اقترب صهيل من السرير وقال:

– أبي.. لقد أحضرتُ لك دواءك.

فتح الرجل عينيه ففزع ذلك الخادم، فرفع نصفه العلوي في خفة، وجلس على السرير ونظر إلى صهيل وقال بصوت مبحوح:

– لقد أحضرت لي غدائي أيضًا.

– لا يا أبي، إن غداءك موضوع على المنضدة.

– أنا أريده هو.. لقد اشتقتُ إلى طعم اللحم البشري.

– يجب أن تساعدني على أن تتعافى يا أبي.

– أتعلم يجب أن تتذوقه في يوم ما.. سوف تجد به بعض الملوحة ولكنه لذيذ.

حاول والد صهيل مسرعًا أن يقفز على الخادم وظهر نابان صغيران، ولكن قدميه كانتا مكبلتين بالأغلال، فتوجه ناحيه صهيل الذي ابتعد وأشار للخادم أن يخرج من الغرفة، مما أثارَ غضب والده أكثر الذي سال لعابه على ملابسه وبدأ يوجه كلامه إلى صهيل:

– لماذا تعذبني هكذا؟

– أنا لا أعذبك.. أنا أريد شفائك.

– إنه قدري وأنا أرتضي به.

– يجب أن تتعافى.

– سوف تصبح مثلي

– أنا لستُ آكل لحوم بشر.

– إنه قدرك أنت أيضًا.. إنه يسري في دمك.. أنت مثلي.

– أنا لستُ مثلك.. لم أقتل خمسين طفلًا حتى آكلهم.. لم أشته لحم زوجتي وأقتلها، أنا أريدك أن تتعافى وذلك العلاج سوف يساعدك.

– يومًا ما سوف ترث ذلك الأمر أيضًا ومن بعدك أولادك.

– اصمت يا أبي..اصمت.

– سوف تأتي إليك، سوف تناديك، سوف تستدعيك لتخلصك من لعنتك البشرية.

– من تقصد؟

– بحارة سوف تأتي لك، سوف تنادي باسمك..في الليل.

نظر صهيل إلى والده ثم خرج من باب الغرفة، وبدأ في غلق الأقفال مرة أخرى وهو يسمع والده يقول:

– سوف تأتي إليك.

وهو يحاول ألا يستمع لتلك الجملة ثم جلس بجوار الباب وأجهش في البكاء.

حَلَّ الليل على المدينة وقد حَلَّ النوم أيضًا على صهيل، إنه غائص في نوم عميق حتى استيقظ على ذلك الصوت الأنثوي ينادي باسمه.

– صهيل.. صهيل.

انتفض جسده، وهو لا يعلم لماذا شعر بخوف شديد بالرغم من نعومة ذلك الصوت، نهض الملك وبدأ في التحرك تجاه النافذة فوجد نفس الفتاة التي كانت في الأمس تقف أمام البحيرة وتنادي باسمه فجرى صهيل مسرعًا إلى مكان المرأة فلم يجدها، بدأ في التلفُّت يمينًا ويسارًا بحثًا عنها، ولكنه لم يجدها ثم وجدها تخرج من وسط البحيرة والمياه تغمرها وضوء القمر مسلطًا على وجهها الخمري لتشع عيناها نورًا وقطرات الماء تهبط على شفتيها مما أثار صهيل نادته:

– صهيل..فلتنضم إليّ.

– من أنت؟

– أنا بحارة..اسمي بحارة.

– لم أرَ لجمالك مثيلًا.

– فلتأتِ يا صهيل..إن المياه باردة، وأنا أريد بعض الدفء.

– ولكن أنا خائف بعض الشيء.

– أهناك ملك يخاف؟

– لماذا أخترتني أنا؟

– لأنني أحبُّك.. هيا يا صهيل.

نزل صهيل إلى المياه، ومَدَّ يده إلى بحارة التي كانت قد سبقته ومدت يدها وأمسكت به ثم احتضنته وقربت شفتاها منه وهي تنظر

له في عينيه ثم فجأة تحولت عيناها إلى اللون الأسود وأمسكت برأسه وغطست به داخل الماء.

صارعت رئتا صهيل قلة الهواء تحت الماء فبدأ يختنق ويحرك قدميه ويديه بشكل عشوائي بحثًا عن طريقه للخروج من الماء ولكنه لا يستطيع، ثم خُيل له أنه رأى وجه بحارة وهي تبتسم له بعينيها السوداوين ثم سمع صوتًا يناديه:

– صهيل.. صهيل.. استيقظ يا صهيل.

– ماذا.. ماذا يحدث؟

– كان يبدو أنك تختنق في أثناء نومك.

– إنه كابوس مريب.. آسف على إيقاظك يا زوجتي.

– لا عليك.. فلتعد إلى نومك مرة أخرى.

ارتمى صهيل بجسده على السرير وقد ابتسم حين تذكر أنه كان مجرد كابوس ليس إلا، ولكن تلك الابتسامة اختفت حين رأى تلك المدعوة بحارة تقف أمامه بعينيها السوداوين وهي مبتلة بالكامل.

ظل صهيل طوال الليل ينظر لها وتنظر له لا يقوى على الحراك أو الكلام، ظنَّ أنه بال على نفسه،ولكن تلك المياه كان مصدرها جسده حيث انه كان مبللًا بالكامل يبدو أن ما رآه لم يكن كابوسًا.

أشارت له أن يتبعها، فنهض صهيل في حذر شديد وبدأ في اتباع بحارة إلى غرفة والده حيث لم تكن بحاجة إلى ان تفتح تلك الأقفال

التي وضعها صهيل، فبإشارة واحدة منها انفتح الباب على مصراعيه ثم تقدَّمت داخل الغرفة، وكان والده جالسًا على سريره.

رآها تجلس بجوار والده وتبدأ في تقبيله، كان ذلك المشهد أكثر ما أثار اشمئزاز صهيل ثم اعتدلت في جلستها بجانب والده حتى تحدث الوالد قائلًا:

– هذه هي بحارة.. من أنقذتني من لعنتي البشرية.

– حان الآن وقت تسليم الراية لابنك صهيل.

– أنا أعلم أن ساعتي قد حانت.

– كان من المفترض أن تحلٍّ منذ وقت طويل، ولكن صهيل كان يرفض أن يصبح واحدًا من جنود ملكنا المعظم.

– أظنُّ أنه سيرضى الآن.

– أنا لا أفهم ما الذي تقوله يا أبي؟

– أنا لم أصبح هكذا دون سبب.. نحن من الخدام يا بني

– يكفي ألغازًا..

– ليس هناك ألغاز.. نحن نخدم شيطانًا عظيمًا صاحب الصولجان الأحمر.

– شيطان!، ولماذا نكون أكلي لحوم بشر لنخدمه؟

- هذا ما وجدت عليه أبي وأجدادي.

- من هذا صاحب الصولجان؟

- إنه القط الأسود.. الظام.

- لن أشترك في مثل هذه الأمور.

- هذا ليس اختيارًا.. إنه إجبار.

قالتها بحارة في هدوء ثم تابعت:

- يجب أن تكون على علم بكل شيء.. أولًا إن الظام يبني جيشه الخاص وخدامه أيضًا ليواجه أخاه زنقط في نزال عظيم حتى يصبح أحدهما الحاكم وذراع إبليس الأولى.

- لن يجبر أحد صهيل على شيء.

- الأمر الثاني أنك الليلة سوف تكمل عامك الثلاثين والأمر سوف يحدث الليلة سوف تشتهي اللحم البشري اليوم.

اتسعت حدقتا عين صهيل وقد شعر بدوار خفيف وكاد يسقط وكان والده وبحارة تتعالى ضحكاهما، ثم بدآ في ممارسة علاقتهما أمام صهيل الذي أفرغ ما في جوفه بمجرد أن رأى ذلك، ثم استند إلى الحائط وعاد إلى غرفته وقد بدأ بزوغ الفجر وأصبح لا يدور في رأسه سوى أمر واحد، إنه لا يريد أن يأكل اللحم البشري.

إنه يوم ميلاد الملك، سوف يكمل عامه الثلاثين، وكما العادة عُلقت أوراق الزينة في جميع حوانيت البلاد، وأصبحت الخمارات تُقدِّم الخمور مجانًا احتفالًا بهذا اليوم وكان التجار يوزعون الطعام على الفقراء والمساكين، والنساء يقفون على نواصي الطرق ويقدمون أنفسهنَّ للرجال دون أي مقابل حيث كان صهيل ملكًا محبوبًا من رعيته.

كل هذ الفرح خارج حدود القصر، يُقابله في الداخل بؤس شديد حيث رفض صهيل أن يخرج من غرفته، أغلق بابه جيدًا وزوجته في الخارج تطرق الباب،تريد أن يسمح لها بالدخول، ولكنه كان يرفض، فلم يتبقَّ على منتصف الليل سوى خمس دقائق فقط، خمس دقائق ملعونة تفصل صهيل عن لعنته.

بدأ في الشعور بألم شديد في رأسه تبعه غثيان خفيف، تألمت معدته، وشعر أن جلده يحترق،وأن هناك سخونة غير عادية تسري في عروقه، ارتمى صهيل على الأرض من شدة الألم، وتعالت صرخاته لتتعالى معها طرقات زوجته، التي تريد أن تعرف ماذا يحدث لزوجها.

حاول الوقوف مستندًا إلى الكرسي ثم تحرَّك تجاه النافذة، شعر أنه يختنق وأنه بحاجة ماسَّة لبعض الهواء،نظر تجاه البحيرة فوجد بحارة تقف مبتسمه بشعرها الأسود الطويل وعينيها القاتمة ثم ظهر أبوه بجانبها، الذي نظر له واحتضنته بحارة وقفزا معًا إلى داخل البحيرة.

صرخ صهيل صرخة مكتومة داخل حلقه،شعر أنه يختنق، شعر أنه يغرق، والمياه تتسرب من مسام جلده وتخرج من جوفه، إنه يغرق، إنها لحظة البلوغ الكلي لحظة تحقق اللعنة، إن والده الآن يسلمه زمام الأمور.

ظهر من داخل الظلام في غرفته كائن أسود كبير لم تظهر ملامحه لصهيل، أشار ذلك الكائن بيده لصهيل الذي تحرجت عيناه وأصبحتا تميلان للسواد، وبدأ ذلك الكائن في التحدث.

– أهلًا بخادمي الجديد.

– من أنت؟

– أنا سيدك من الآن.. قدرك أن تكمل ما بدأه والدك.

– أشعر أني أختنق.

– إن صهيل يُحتضر..ليسمح بقدوم شخصك الآخر.

– أنا أموت.

– صهيل سوف يموت..ليأتِ صنهور..أأنت على استعداد؟

– أنا على أتم استعداد؟

ردد معي تلك الكلمات:

أقسم بك يا ظام أن أكون في طاعتك.

سوف أنفذ الأمر دون عصيان أو مناقشة.

سوف أفضل لحم جنسي على أي لحم آخر.

حتى أستمدَّ القوة.

خرجت من صهيل حشرجة غريبة وارتفع جسده في الهواء وبدأ يترف قطرات دماء صغيرة من جميع مسام جسده وتساقط شعره الأسود، ثم بدأ حجم جسده في التغيُّر متخذًا وضع الجنين في رحم أمه واستطالت أذناه لتظهر له أنياب صغيرة وذيل صغير، ثم سقط أرضًا.

في تلك اللحظة كانت زوجته بمساعدة أحد الجنود قد حطمت باب الغرفة فوجدت ذلك الشيء قابعًا على الأرض أمام النافذة، بحثت بعينيها عن زوجها، ولكنها لم تجده، اقترب أحد الجنود من ذلك الشيء يتفحصه.

فتح صنهور عينيه شديدتيْ السواد ثم انقضَّ على ذلك الجندي وبدأ في التهام جسده، فزعت الزوجة وبدأت في الفرار، رفع صنهور رأسه ليستنشق رائحة اللحم البشري، ثم جرى مسرعًا على يديه وقدميه مطاردًا زوجته.

بدأ يستلق الجدران وهي تعدو أمامه ثم انقض عليها وقضم قضمة صغيره من يدها فصرخت الزوجة مستغيثة ثم أصدر صنهور زمجرة ونظر في عيني زوجته اللتين كانتا تمتلئان بالرعب فوجدها تستنجد باسمه.

– صهيل.. أين أنت يا زوجي؟ صهيل.

دمعت عينا ذلك الوحش الصغير، إنها لا تعرف أنه هو، عاد إلى الوراء مبتعدًا عنها محاولاً أن يُقاوم رغبته في التهامها، ولكنه سريعًا ما أدرك أنه ضعيف الإرادة، وأنه الآن خادم الشيطان الملعون، أدرك أن هذا قدره المحتوم، انقضَّ عليها مرة أخرى، متلذذًا بها، فإن لم تقوَ على مقاومة لعنتك ، سيكون جيدًا أن تستمتع بها.

***

جلس المولى إبراهيم ومعه راغب في الحديقة الخاصة بالقصر، ليجرد راغب الخسائر التي عمت على مكناس في تلك الفترة الوجيزة التي لم تتجاوز الثلاثة أشهر، فبجانب اللعنة التي أصابت البلاد، أصبح الناس يسرقون من بعضهم البعض،وأصبحت الطرقات غير آمنة لعبور قطة صغيرة.

قرر راغب بعد ذلك الأمر أن يزيد الحراسة على القصر حتى لا تطوله أيدي اللصوص والمتمردين، أصبح المولى شاحبًا بعض الشيء، ا يأكل على الرغم أن كل من بمكناس يعلم عشقه الشديد للطعام ونهمه العالي، أمر راغب بإحضار الطعام محاولًا مرة أخرى إطعامه ولكنه رفض.

- إن قلة طعامك لن تحل شيئًا يا إبراهيم.

- ماذا أفعل يا صديقي.. إنني أشعر أنني أغرقُ في الوحل.

- لا تقل هذا.. سوف تمر تلك الأزمة عما قريب.

- كل شيء قد انتهى علاقتي بابنتي قد تدمرت وزوجتي لا أعلم ما الذي أصابها ومكناس.. قد هلكت.

- إن مكناس لن تهلك أبدأ..أما عن ميرا فأنت تعلم أنها ما زالت فتاة صغيرة.

- لم يعد صدري يتسع لحمل ذلك السر وحدي.

- اصمت يا إبراهيم.. إنني أخشى أن يسمعك أحد ما.

- لقد خسرت كثرًا ولن أتحمل خسارة ميرا في يومٍ ما..بالفعل هي ليست ابنتي، وأنت تعلم أنها ابنة زوجتي من زوجها قبلي.. ولكن أنا من رأيتها تكبر أمامي يومًا بعد يوم..لم أكن أتخيل أني سأعشق تلك المشاعر الدفيئة،يدها الصغيرة وهي تمسك بيدي..صوتها عندما نادتني: يا أبي للمرة الأولى.. عيناها التي طالما تشبهان عين أمها..عنادها الذي يُشبه عناد والدها.

قالها في غضب شديد.

- ماذا بك يا مولاي؟

- لا شيء.. تذكّرت فقط أمرًا قديمًا.

- فلتهدأ وأعدك أني سوف أحلُّ كل شيء.

- أنت أفضل صديق حظيت به يومًا.. لم أحظَ بمن هو مخلص مثلك.

- هذا شرف الصداقة يا إبراهيم.

بمجرد انتهاء راغب من جملته الأخيرة وجد أحد الحراس يهرول مسرعًا وقد تمزقت ثيابه والدماء تسيل من بعض أنحاء جسده ووجهه، ووقف أمام المولى، وبدأ في الصراخ وهو يردد:

- أبعدوها عني.. أبعدوها عني.

وتابع هرولته وخرج من القصر، وفي نفس لحظة خروجه سمع راغب والمولى ضحكات عالية تأتي من داخل القصر.

تحرّك الصديقان، ودلفا إلى غرفة ميرا التي كانت مصدر الصوت فوجد المولى ما لم يكن في حسبانه حيث وجد كترا واقفة وقد أصبح شعرها مبعثرًا على غير عادتها، وختم الشيطان في يدها يشع ضوءًا أحمر خفيفًا وتحيط بعينيها هالة سوداء كبيرة ويميل لون عينيها إلى الأصفر، وكانت ميرا مُقيدة في أحد الكراسي.

حاول المولى الاقتراب لنجده ميرا سريعًا ولكن كترا استوقفته بحركة واحدة من يدها فدفعته للوراء فسقط أرضًا، وأصدرت كترا ضحكاتها مرة أخرى، واقتربت من ميرا التي كانت تبكي وترتجف من شدة الخوف، أصدرت كترا فحيحًا كالثعبان وفتحت فمها مقتربة من وجه ميرا فظهر ذلك العقرب وهو يقترب من وجه ميرا.

هنا ظهر الخليل على باب الغرفة وعيناه يسيطر عليهما اللون الأبيض وقد رفع يده موجهًا إياها ناحية كترا ثم قال بصوت عالٍ:

– آمرك أن تبتعد عنها.

ارتمى جسد كترا واصطدم بقوة بالأرض،فقفز المولى واقفًا وصرخ في الخليل:

– أرجوك لا تؤذِ زوجتي.

نظر الخليل إلى راغب، ولا يعرف كيف فهم ما يريد، فجرى مسرعًا إلى ميرا،وفكَّ قيدها وخرجا من تلك الغرفة نهضت كترا وهي ما زالت تبتسم و تُحرِّك يدها يمينًا ويسارًا فأصبح المكان شديد السواد وضحكاتها تتزايد، كان الخليل يُحرِّك عينيه البيضاوين يريد أن يُحدِّد مصدر ضحكاتها، ولكنه فشل.

فجأة عَمَّ الغرفة نورٌ أحمر فرأى الخليل كترا تقف أمامه تمسك بطفلة صغيرة تبكي وهي تحاول أن تطمئنها،ثم انطفأ الضوء مرة أخرى وعاد للإنارة فوجدها تقف مع امرأة، إنه يعرفها جيدًا، إنها زوجته ولكن كيف، إنها هلوسة، إنها تحاول التحكم في عقله، ثم ظهرت كترا أمامه وهي تبتسم فعاد تلقائيًا خطوة للوراء، ولمح من خلفها نفس الكائن الأسود صاحب الخاتم يقف مستندًا إلى الحائط حتى سمع كترا تقول:

- لم أكن أعلم أنك تحب زوجتك لتلك الدرجة.

- اصمتي، هذا ليس من شأنك.

- لن تستطيع إنقاذها.

- استاش لا موش.

صرخ الخليل جراء تحريك ذلك الكائن يده وراءها:

- أنت ضعيف رغم قوتك.

- من أنت؟ لماذا تفعل ذلك بمكناس؟

- أنا أفعل ما آمر به.

- سوف أقتلك؟

- لن تستطيع، أنا مجرد خادم.. أنا مجرد عقرب جحيمي.

- اااااااااااه.. است..ش.

- ولكن ما لا أفهمه كيف لك أن تتحمل كل ذلك الألم.. من المستحيل أن تكون بشريًا.. دعني أتجول في عقلك قليلًا.

بدأ الخليل يشعر بصداع يجتاح رأسه، وعينا كترا تتسعان، لذلك العقرب قوة غريبة، هو بالفعل يتجول بعقله، أنفاس الخليل يتزايد ثم توقف الأمر فجأة حتى قالها ذلك الصوت عن طريق كترا.

- كما توقعت.. أنت واحد منا.. أنت مدنس.

داخل سجن قارا كان عابد يستعد ليكمل خطته في القضاء على مكناس والانتقام من المولى، جزء ما داخل عابد يُشعِره أنه اكتفى، ولكن جزءًا آخر أكبر وهو المسيطر، يرى أنه لا رحمة بعد الآن، وأنه لا يجب أن يضعف. جلس وبدا في تذكر ميرا، وطريقة حديثها وملامحها التي كانت تبث السعادة في قلبه ويدها التي كانت تعيده طفلًا صغيرًا وكأنه يجلس في أحضان أمه.

أمه، نعم إنه يريد أن يعرف أين هي، أما زالت على قيد الحياة أم أنها فارقتها، إنه يريد أن يعرف ملامحها، كيف تبدو، لا يوجد سوى أمر واحد، أن يسأل أباه عنها، تحرَّك تجاه القط الأسود الذي كان يجلس مستندًا إلى أحد الجدران، اقترب عابد ودقَّق في عينيه السوداوين، فلمح دمعة صغيرة مما ترتب عليها أن عقد حاجبيه في تعجُّب شديد:

كيف للظام أن يبكي؟ كيف لشيطان أن يبكي؟

– أتبكي يا ظام؟!

اعتدل في جلسته سريعًا في محاولة لإخفاء تلك الدمعة عن ولده.

– إن القط الأسود لا يبكي.

– ماذا بك؟

– لقد تذكرتُ أمَّك.

– أكنت تحبُّها يا أبي؟

– لم أعشق غيرها.

– ما الذي كان يميزها؟

– عيناها اللتان كانت تنظر بهما،جسدها، همسة منها كانت تريح قلبي.. أتعلم لم أشعر يومًا بالخوف، ولكني شعرت به حين أحببتها.

– وكيف تقبَّلت هي الأمر؟

لم تعرف.. لم تَرني يومًا، ولكن في يوم ما قررتُ أن أذهب إليها في نومها، وجدتها نائمة في سكون بمجرد أن نظرتُ إليها أدركتُ أني لن أتحمل أكثر من ذلك،تسلّلتُ إلى أحلامها تصوَّرتُ لها في صورة شاب كانت هي تعشقه في المدينة وحدث الأمر.

– وأين هي الآن؟

– لقد قتلها زنقط..لقد أخبرني بذلك قبل أن أُسجن هنا، ولكني أشعر أنها على قيد الحياة.

– ماذا كان اسمها؟

– حسنة النوايا.

– ماذا؟

– اسم والدتك يعني حسنة النوايا، وكنت أناديها في أحلامها.. كنترا.

عشق وحقيقة

لم أعد أستطيع التفكير أكثر من ذلك، ما قاله ذلك الشيء على لسان كترا لم أستوعبه حتى الآن، كيف أكون واحدًا منهم؟ وكيف أكون مدنسًا؟ فأنا أعرف والدي ووالدتي جيدًا، لا أستطيع التفكير أكثر من ذلك.

قررتُ أن أذهب لأستنشق بعض الهواء يساعدني على التريث والتفكير في ذلك الأمر، تحركت خارج غرفتي، ونزلت على السلم الرخامي، ووقفت قليلًا في بهو القصر نظرت إلى التحف الموضوعة، واستمتعت بجمال المعمار، هناك لوحات فنية كثيرة معروضة وأدوات فخارية، فاستوقفتني صورة للمولى إبراهيم.

كانت مرسومة بحرفية شديدة توضح ملامحه بشكل كبير، اقتربت أكثر لأتأمل ملامحه، كان جالسًا على كرسي عرشه مرتديًا عمامته

وجلبابه المغربي المصنوع من الحرير يحكم قبضته اليمنى ويريحها على قدمه دليلًا على قوة حكمه، ونظرة عينيه تعبر عن مدى الحكمة التي يتمتع بها، ولكن اتسعت عيناي حين لم أرَ الان تلك القلادة التي كان يرتديها في كل الأوقات.

اقتربتُ أكثر لأدقق النظر، وإذا بي أشعر بأقدام من خلفي وأسمع الخطوات تقترب مني، وشعرت بيد تربت على كتفي فانتفض جسدي ورأيت المولى أمامي.

– لم أقصد أن أفزعك أيها الساحر.

– لا عليك يا مولاي.

– كيف حال كترا اليوم؟

– لقد أعطيتها بعض الأعشاب التي سوف تساعدها على النوم.

– أريد أن أشكرك على ما تفعله لأجلي ولأجل مملكتي.

– هذا واجبي يا مولاي.

– لماذا تقف هنا وحدك؟

– لقد كنت أتأمل تلك الصورة.

– لقد فاجئني بها ورسمها لي أحد الفنانين من مصر وأرسلت لي كهدية.

- إنه فنان مبدع حقًا..هناك تفاصيل كثيرة اهتمَّ بها،ولكنه تناسى شيئًا واحدًا فقط.

- وما ذلك الشيء؟

- القلادة التي ترتديها يا مولاي.

- ظهرت علامات التوتر على المولى وبدا وكأنه يحاول أن يجمع الكلمات حتى قال لي:

- أنا في ذلك اليوم لم أكن أرتديها.. حين كان يرسمني.

- ألم تقل إنها أُرسلت لك كهدية، وأنه فاجأك بها؟

- دعك من هذا يا خليل وأخبرني ما خطتنا في المرحلة القادمة؟

- يجب أن أعرف من وراء كل ذلك، ومن الذي يتحكم في تلك العقارب. ولكن هناك أمرًا ما يجب أن أفعله في البداية.

- ما هو؟

- عفوًا يا مولاي، ولكنه أمر شخصي.

- لا تجهد رأسك في التفكير ودعك من ذلك الكلام الذي قاله لك ذلك الشيء عن أنك مدنس، إنه يحاول أن يعبث بعقلك.

- كيف لك أن تعرف ذلك؟

- لقد أخبرتني الآن.

- لا لم أخبرك بشيء.. أنت سمعت ما قاله لي.

- لا لم أسمع شيئًا..أنت أخبرتني.

- كيف هذا؟ لا يقدر أحد على سماعهم أو الشعور بهم سوى من لديه القدرة على التواصل معهم.. أنت ساحر حتمًا أنت ساحر.

- اصمت يا خليل.. أجننت؟ أنسيت مع مَن تتحدث؟

- كيف لك أن تعرف كل هذا؟ فسِّر لي، وما سر تلك القلادة؟

نظرت إلى وجه المولى فرأيته قد استشاط غضبًا وأدار لي ظهره وكان جسده يهتز بسرعة كبيرة ثم توقف فجأة وعاد إلى النظر لي فوجدته مبتسمًا وتسيطر عليه حالة من الهدوء المبالغ فيها.

- خليل أنت هنا لمهمة محددة.. فلتعمل على أن تنجزها حتى ترحل من هنا، والآن انصرف من أمامي.

- ولكن أنا أر..

- انصرف من أمامي.

- أمرك يا مولاي.

تحركتُ، وأنا أنظر في عينيه وابتسامته السخيفة تلك التي ظلت معلقة في ذهني فترة طويلة، بعد تحركي من أمامه خرجتُ إلى الحديقة وجلستُ على ذلك الكرسي أمام البحيرة أُفكر ما خطوتي القادمة.

وجدت ميرا قد أتت، وجلست بجواري دون أي مقدمات وجدتُها تبتسم فابتسمت تلقائيًّا وابتسم قلبي من الداخل، يبدو أنني أحبُّها.. نعم أحبُّها، ولكن لا يمكنني أن أخون زوجتي فأنا أيضًا أحبها.

ميرا قائلة:

– شكرًا لك.

– على ماذا؟

– إنقاذك لحياتي.

– أنا لم أفعل شيئًا.

– تفضَّل.

– ما هذا؟

– خمر كما طلبتَ.

– شكرًا لكِ.

– أتذوقُ تلك الخمر المغربية التي طالما عشقت مذاقها.

– من أين أنت أيها الساحر؟

– أنا من تلك الأرض أنا ابن المغرب.

– ألديك زوجة؟

– كان لديَّ زوجة وابنة ولكنهما رحلا عني.

– وما السبب؟

– أنني أهملتهما، ولكنني سوف أذهب إليهما في يومٍ ما.

– أين مكانهما؟

– تحت ذلك التراب.

– أنا آسفة.

– لا عليك.. تريدين أن تستمعي للقصة؟

– إذًا كنت تريد أن تقصَّها عليَّ.

– أنا أريد.. حتمًا أريد.

وقفت وتقدمت خطوات قليلة تجاه البحيرة وفتحت ذراعي للهواء لأترنَّح قليلًا، يبدو أن مفعول الخمر بدأ في العمل وبدأت أنا في الحديث.

كان هناك شابٌّ صغير يُدعى الخليل، من مدينة خنيفرة، هذا هو أنا في يوم كنت ألعب مع الأطفال الصغار ورأيتها تلعب معنا، فطيمة، كان اسمها فطيمة، عشقتها منذ كنت صغيرًا عندما كبرنا تزوجنا وأنجبنا طفلتنا الوحيدة، التي كانت تكبر أمامي يومًا بعد يوم.

تساقطت دموعي وأنا أحكي فأسرعت ميرا قائلة.

– إذا كنت لا تقوى على المتابعة فتوقف.

– لا.. أنا أريد أن أحكي.

- حسنًا ..كما تشاء.

وفي يوم ما شعرت بقوة غريبة تسري في جسدي لا أعلم كيف تعلمت كل تلك الأمور الخاصة بالسحر، فآخر ما أتذكره أنني كنت أمرُّ بالقرب من المقابر وتعثرت وسقطت أرضًا واستيقظتُ في بيتي، وبدأت قواي في التزايد، وكنتُ لا أستطيع التحكم بها، كان هناك شيء واحد يكبح جماحها.

- ما هو؟

- الخمر، وأصبحت الخمر لعنتي، وفي يوم أخبرتني زوجتي أنها سترحل عني لو لم أتوقف عن احتساء الخمر، لم يكن متبقيًا معي أي مال بسبب رغبتي في شرائها، أصابت ابنتي حُمَّى بحثت عن المال ولكني لم أجد معي، حاولت أن أقترض من كل من في خنفيرة ولكن الجميع رَفَضَ اقراضي، فحدث ما لم أكن أتوقعه.

- توقف يا خليل.

- لا..دعيني أُكمل، دعيني أخرج ما بداخلي، باعت زوجتي نفسها لصاحب حانة في خنفيرة حتى توفر المال لعلاج ابنتي، وعندما عادت إلى منزل كانت ابنتنا قد فارقت الحياة لم تستطع أن تعيش بعارها فانتحرت فطيمة وتركتاني وحيدًا..

اقتربت مني ميرا فوجدت الدموع تغطي وجهي بالكامل.

- لقد اقتربت من الموت كثيرًا يا ميرا، ولكنه رفضني.. أنا لست بإنسان، أنا من قتلتهم يا ميرا.

- فلتهدأ يا خليل..

نظرت في عينها ونظرت هي في عيني أيضًا، ومسحت دموعي بيديها الناعمتين،اقتربت مني أكثر، احتضنتني، فشعرت بأمان وسكينة لم أشعر بهما منذ زمن بعيد..اقترب وجهها من وجهي، لم أشعر بشيء سوى وأنا أقبلها بحرارة شديدة وشعرت بسعادة عارمة داخلي، توقفت عن تقبيلي وقالت بصوتها العذب:

- يبدو أني سأُحبك.

سمعنا صوت أحد الحراس قادمًا، فأمسكت ميرا بيدي، وبدأنا في الركض حتى لا يرانا أحد ويخبر المولى بذلك، فوجدنا شجرة كبيرة استترنا تحتها.

- ما هذا المكان يا ميرا؟

- كنتُ آتي إلى هنا وأنا صغيرة أختبئ من أبي.. هذا مخبأي الصغير.

- ولماذا أتينا هنا؟

ابتسمت ميرا وأراحت ظهري للوراء فشعرت ببرودة العشب الأخضر، لتبدأ هي في نزع ثيابي عني وفعلتُ أنا المثل وبدأنا في ممارسة الحب، وتناسيتُ كل شيء، تناسيتُ زوجتي في تلك اللحظة وشعرت أني الآن لا أخونها، يبدو أني سأُحبك أيضًا يا ميرا.

أصبحت السماء ملبدة بالغيوم وتساقطت الأمطار، وأفزعت أصوات الرعد قلوب ساكني مكناس، وحينما ضرب البرق ظهر وجه أسود ذو عين سوداء قاتمة، وكأنه يبتسم وكأن السماء أصبح لونها يميل إلى الاحمرار.

وقف الوزير راغب في المنطقة الشمالية من المدينة واصطف أمامه الجنود ممسكين بسيوفهم ودروعهم تحمي الصدور والخوذات الحديدية يرتدونها، أشار راغب إلى رماة الأسهم بأن يتخذوا مواقعهم فوق المباني، ثم بدأ يتحرك داخل صفوف الجيش يداعب بيده المبتلة جراء الأمطار ذقنه كأنه يُفكر فيما سيقول ثم وقف على تلة عالية والتقط أنفاسه وبدأ خطبته قائلًا:

"بسم الله الواحد الأحد.. إنني أعلم أن جنود مكناس على قدر كافٍ من الشجاعة، وأنا على دراية كاملة بما تكنون لتلك البلاد من مشاعر، اليوم نحن لا نقاتل عدوًا ولكننا نقاتل أبناء تلك الأرض أيضًا، أبناءنا ونساءنا الذين تلبستهم تلك الأرواح الشريرة النجسة، من الممكن أن تجد صديقًا لك لا يخدعك مظهره، إنه ما هو الا شيطان رجيم، والآن لننتقل إلى خطة الهجوم".

لاحظ راغب أن هناك حركة غريبة من أحد الجنود أمامه، حاول أن يُدقق النظر إلى ذلك الجندي الذي يتلفت يمينًا ويسارًا ثم تابع حديثه:

"لقد كلفني المولى إبراهيم نفسه بالحرص على تنفيذ تلك الخطة وتمشيط المنطقة الشمالية من هؤلاء الغزاة..الرماة أعلى المباني يدعمونكم، سوف ننقسم إلى مجموعتين المجموعة الأولى تبحث عن ناجين والمجموعة الثانية سوف أكون أنا على رأسها وأوامرنا أن نقتلهم دون تردد.. فلنتقدم يا جنود مكناس".

ترجّل راغب من على التلة وبدا يتحرك مع مجموعته، أشهرَ سيفه استعدادًا لأي مفاجئة، سيطرت على المنطقة الشمالية رائحة العفن، أما السواد الذي يعم تلك المنطقة فلم يكن طبيعيًا قط، أشار الوزير إلى فرقة صغيرة كي يسلكوا ذلك الشارع وبعد بضع خطوات أشار إلى فرقة أخرى أن يسلكوا شارع آخر، وظل هكذا يوزع مجموعته على الشوارع ليتمكن من تمشيط المنطقة بأكملها.

اقترب راغب من تلك المنطقة التي يقف بها هؤلاء الأشخاص كانوا ثلاثة رجال وامرأتين،يبدو أنهم ممسكون بشخص ما،كان الرجل الأكثر ضخامة ممسكًا بسكينه، ليقطع من لحم ذلك الرجل الذي بدأ في الصراخ ثم يلقي باللحم إلى ذلك العقرب الضخم الذي ظهر فجأة والتقطه من الهواء.

تابع راغب وجنوده كل هذا باشمئزاز كبير، تحركت إحداهن وتوقفت أمام العقرب يبدو أنها كانت تستعرض جسدها أمامه وخلع ثيابها والدوران، نظر راغب في عينيها ليجدها سوداء تمامًا، ختم الشيطان على جبينها وكذلك ختم على أجساد باقي الأشخاص في

أماكن مختلفة،وفي تلك اللحظة صرخت المرأة مشيرة الى مكان راغب وجنوده، هنا قالها راغب بنبرة تحفيزية للجنود "حسنًا.. فلتبدأ المعركة".

ركض راغب تجاه المرأة العارية وتبعه الجنود شاهرين سيوفهم من بعده وهم يصرخون، وتراجع العقرب الكبير، ثم بدأ رماة الأسهم من فوق المباني يلقون بسهامهم فاخترقت جسد أحد الرجال، ثم تقدَّم أحد الجنود بسيفه إلى المرأة الأخرى وغرس السيف في صدرها، تحرك أحد الممسوسين تجاه أحد الجنود وأمسك به ورفعه في الهواء ثم بدأ في جذب جسده في اتجاه معاكس فمزقه إلى نصفين.

فجأة ظهر من جميع الشوارع أشخاص ممسوسون أكثر، وبدأ راغب وجنوده في التصدي لهم على قدر الإمكان، وكذلك رماة الأسهم من فوق المباني الذين حاولوا تغطية ظهور الجنود وحمايتهم حيث كانت أعداد الممسوسين في تزايُد مستمر.

تحرك ذلك الجندي إلى مكان راغب الذي كان يقاتل المرأة العارية، وأشهر سيفه متوجهًا ناحية راغب، فسقطَ راغب أرضًا جراء دفع تلك المرأة له، اقترب الجندي أكثر فغرس السيف في ذلك الممسوس القادم من خلف راغب في نفس اللحظة التي وضع فيها راغب السيف في عنق المرأة ليخرج من راسها.

مَدَّ الجندي يده إلى وزيره ليساعده على النهوض، والذي قال له شاكرًا:

- شكرًا لك أيها الجندي.. يجب أن نتابع القتال ..هيا.

أومأ الجندي برأسه لراغب وتابع الاثنان القتال، أشلاء الجنود ترتفع وتتزايد عن أشلاء الممسوسين، تناثرت الدماء في المنطقة الشمالية، لم يتوقع راغب أن يتعرض لهذا الكم من الخسارة، ولكنه كان يرى أنه لا يجب أن يستسلم.

ظهر ذلك العقرب الضخم فجأة في وسط ميدان المعركة حيث خرج من الرمال فاهتزت الأرض وتطاير الجنود على الجهتين اليمنى واليسرى، وأمسك بمخلبه أربعة رجال معًا ثم أحكم قبضته عليهم فتحولوا إلى أشلاء، وبدأ يلدغ باقي الجنود عن طريق إبرته، فكان الذي يتعرض للدغة يبدأ في القفز ثم يختنق ثم تتوقف أنفاسه، أمر راغب الجنود بالتراجُع، فتراجَعَ الجميع تلبية لأمر الوزير، إلا ذلك الجندي الذي أنقذه وجده يركض مسرعًا تجاه العقرب وقفز رافعه سيفه وغرس السيف في إحدى أقدامه الثمانية حيث كان طول العقرب يصل إلى ثلاثة أمتار.

بدأ العقرب يتحرك متألمًا ويتحرك معه ذلك الجندي حتى سقطت خوذته وظهر شعرها وهو يتطاير، فاتسعت أعين الجميع وعينا راغب من الدهشة،حين اكتشف وجه ذلك الجندي،فلم يتوقع على الإطلاق

أن يكون الجندي امرأة، وأن تكون تلك المرأة هي ميرا، فصرخ راغب في الجنود:

- إنها ميرا.. أنقذوا ابنة المولى.

تحرَّك الجنود جميعًا غارسين سيوفهم في ذلك العقرب، وبدأ رماة الأسهم يسلطون سهامهم على جسدهِ فبدأ العقرب في التلويح بيديه، ليصيب بها منيصنيب من الجنود،ثم هاوى شيئًا فشيئًا، وانسابت دماؤه السوداء على الرمال، ثم سقط أرضًا.

اتجه راغب سريعًا إلى ميرا وساعدها على النهوض وقال مُعنِّفًا:

- كيف أتيت إلى هنا؟ من الذي سمح لكِ؟

- لم يسمح أحدٌ لي.. جئتُ كي أساعد في تحرير مكناس.

- أتدرين لو كان حدث لكِ شيئًا لقتلنا والدُك جميعًا.

- لا تقلق أيها الوزير.. أنسيت أنك من علمتني المبارزة والقتال!

- قطع ذلك الحديث قدوم أحد الجنود إلى راغب قائلًا:

- سيدي.. لقد فَرَّ باقي الممسوسين.

- حسنًا.. فلتتيقَّن من حفظ سلامة ابنة المولى في طريق عودتنا.

- أمرك، سيدي الوزير.

نظر راغب إلى ميرا غاضبًا ثم أمَر الجنود بالعودة إلى قصر المولى إبراهيم، أحضر الجنود عربات صغيرة ليحملون بها الضحايا من

زملائهم الذين فارقوا الحياة، كما أمرهم راغب رغبة منه في تشييع جثماينهم بشكل لائق حتى لا تختلط أجسادهم بأجساد هؤلاء الممسوسين.

نظر راغب إلى السماء فرأى ذلك الوجه وقد أصبح غاضبًا وأن الأمطار قد هدأت قليلًا فرفع راغب سيفه إلى ذلك الوجه في السماء:

– لقد نجحنا اليوم في إغضابك أيها الشيطان، فلتنتظر غدًا إن لم نقضِ عليك، سوف نُجبرك على التوبة.

***

أصدر عابد صخرة عارمة اهتزت لها جدران سجن قارا واهتزَّ لها قلب صنهور، فتحرَّك صنهور مسرعًا إلى مكان جلوس عابد فوجده يجلس باكيًا مُمسكًا بيده بعقرب صغير، وأخذت دموعه تسيل بغزارة على وجهه.

اقترب الظام من ولده في محاولة منه لتهدئته قليلًا فربت على كتفه:

– فلتهدأ يا مدنس.

– لقد قتلوك يا صغيري.. بلا رحمة.

– من الذي قتله وكيف؟ قالها صنهور، فأجابه الظام مُوضِّحًا:

– لقد قتلوا نسخته الكبرى..إن عابد يتحكم في العقارب الكبرى عن طريق أمثالهم الصغار إذا تعرضوا للموت مات الآخر وهكذا.

- لن أرحمهم يا أبي.. لن أرحمهم يا ظام،اليوم سوف يكون عقابهم مضاعفًا.

- يجب أن تهدأ حتى نحصل على الصولجان.

- أنا لا أريد الصولجان هذا.

- أنا أريده.. يجب أن تطيع أوامري يا مدنس.

- أنا لا أُطيع أوامر أحد.

ارتسم الغضب الشديد فكسى تعابير وجه الظام فاتجه إلى عابد وأمسك بعنقه ورفعه إلى الهواء فحرك عابد الخاتم تجاه الظام فارتخت عضلات الأخير وترك عابد وبدأ في التقهقر إلى الوراء فابتسم عابد قائلًا:

- لقد حذّرتك من قبل، والآن فلتتحمل نتيجة أعمالك.

- أبعد ذلك الخاتم عني.

- أخبرني بماذا تشعر.. إنك ضعيف، لم تعد مثل سابق عهدك.

ابتعد عابد وأعطاه ظهره فزأر الظام، وانقضَّ على عابد، وبدأ في قتال ابنه فوضع يديه خلف ظهره وأمسك به جيدًا،وكان عابد ممتعض الوجه،يحاول أن يتخلص من قبضته،اقترب الظام من أذنه قائلًا

- أنا لست بضعيفٍ،وأنا فقط من سيساعدك على تحقيق ما تريد.

- اتركني.

- سوف أتركك ولكن في المرة القادمة سوف أقتلك يا مدنس.

ألقاه الظام بعيدًا، فسقط أرضًا ثم أشار الظام لصنهور بيده،ثم اتجه إلى عابد الذي نهض من فوق الأرض وقال له:

- سامحني يا أبي؟

- لقد أحضرتَ لك هدية اليوم.

- هدية!

- نعم.. فلتنظر من جاء لزيارتنا.

نظر عابد فوجد صنهور قد حضر وخلفه رجلان، أحدهما رجل عجوز ذو لحية بيضاء وله عين لا يستطيع أن يرى بها، والآخر شابٌّ قوي مفتول العضلات، إنه الشريف وولده هشام، فابتسم عابد ناظرًا لهما ثم نظر إلى القط الأسود الذي قال:

- هذا لقاء عائلي، أظنُّ أن وجودي لن يُضيف شيئًا.

فبدا جسده يتلوى يمينًا ويسارًا حتى صغر حجمه واتخذ شكل القط الأسود، وجرى مسرعًا إلى جزء بعيد من السجن، نظر عابد في عين الشريف ولاحظ أنه يرتجف قليلًا وكان هشام يحمل ملامح الغلظة، ظلوا صامتين حتى قال عابد:

- مرحبًا بكم في مستنقع قارا.

- لقد اشتقتُ إليك يا جارية.

– لم أعد أُريد أن أسمع ذلك اللقب.

– ما الذي تغير بك يا أخي؟

أولًا أنا لست بأخيك..ثانيًا لقد تغيَّر كل شيء، أصبحتُ أقوى أصبحتُ لا أُقهر.. ما رأيك يا شريف؟

– نحن لم نقصد أن نتركك ونهرب.

– لا يا أبي.. لا عليك.. في الواقع أريد أن أشكرك.. فلقد عرفتُ أبي الحقيقي.

– أباك الحقيقي.. ماذا تقصد؟

– أقصد أنك قدمت أمي قُربانًا لشيطان،كنت تكرهني طوال تلك السنوات.. لأنني لستُ بولدك.. قرّرت أن تضحي بي أنا هنا.

– لست بولدي.. هذا ليس صحيح.

– إنك أخي يا عابد.. لقد ربيتُك حين كنتَ صغيرًا.

– كفاكما ألاعيب.. إن تلك الكلمات المعسولة لن ترحمكم من عقابي.

– عقاب ماذا؟ أُجننت؟ أنت ولدي.

– أنا ابن القط الأسود.. أنا ابن الظام

– هذا خطأ.. ابن الظام يكون..

- اصمت يا شريف.

تحرك عابد تجاه الشريف وهو ينظر بثبات في عينيه وعندما وصل إليه وقف هشام أمامه محاولًا الدفاع عن أبيه، فابتسم عابد واستدعى عقربًا صغيرًا إلى يده ثم جرح بإبرته عنق أخيه وكرَّر ذلك الأمر كثيرًا حتى سقط هشام أرضًا فجلس بجواره عابد وبدا وكأنه يحتضر وحشرجته تزداد ثم قال:

- ما رأيك بما وصلت إليه الجارية؟

نهض عابد ونظر إلى الشريف وأمره أن يتقدم إليه فتقدم وأمسك به جيدًا واستدعى عقربًا آخر، فبدأ الشريف يبكي متوسلًا:

- لا تقتلني يا بُني.. أنت ولدي؟

- لا تخف.. لن أقتلك، ولكن..

- ولكن ماذا؟

- افعل ما آمرك به.

- حسنًا، سأفعل.

أمسك عابد بفك الشريف حتى يفتحه، ثم مرَّر العقرب الصغير في يده إلى داخله، سعل الشريف أولًا، ثم بدأ يتلوى من الألم في معدته، كان يشعر وكأن أشياء كثيرة تتحرك في معدته.

- إنه يتكاثر بداخلك سريعًا..يجب أن أُرسل للمولى اليوم رسالة، وأنت رسولي ورسالتي، اذهب للمولى إن كنت تريد أن تنجو بحياتك.

أشار إلى العقارب أن ترتفع به من الفوهة ثم نظر إلى القط الأسود الذي وقف إلى جواره مبتسمًا وإلى صهيل الذي يختبئ ويلهث على جثة هشام، فقال عابد:

- فلتأتِ يا صهيل وتتناول عشاءك..لا تنظر إليّ هكذا يا أبي.. اعلم أني خدعته وأنه سوف يموت سواء ذهب إلى المولى أم لا.. والآن اتركوني أستمتع بلذة انتقامي من الشريف.

***

تحركتُ اليوم وخرجت من قصر المولى باحثًا عن إجابة لما قاله لي ذلك الشيء، قررتُ التوجه إلى خنيفرة المدينة القابعة بجوار مكناس مباشرة، انطلقت على صهوة جوادي، ودخلت إلى خنيفرة.

يا لجمال الجبال في تلك المدينة! إنني أعشقُ حتى رمالها، توجهتُ أولًا إلى حانتي التي كنتُ دائمًا أجلسُ بها، لقد تعرَّف على صاحب الحانة، طلبت منه أن يحضر لي كأسًا من الشراب الذي أتجرعه دائمًا تجرعت بضع كؤوس ثم اتجهت إلى منطقة الحوانيت حيث سألتقي ظافر.

ظافر هو أحد الحدادين والأكثر شهرة في منطقة الحوانيت، وكان صديقًا لوالدي وحتمًا يعرف كل شيء عن طفولتي إذا كنت أريد أن أعرف شيئًا ما فيجب أن أتوجَّه إليه مباشرة.

في بادئ الأمر لم يتعرف عليّ ظافر،وعندما أدرك من أنا، احتضنني بشدة ثم قرَّر أن يغلق حانته ونتجه إلى المترل، حضَّر لي من الطعام ما لذَّ وطاب، لقد اشتقتُ إلى مذاق طعام خنيفرة، انتهينا من الطعام وجلسنا معًا.

– اشتقتُ إليك يا عمي ظافر.

– أنا أيضًا يا ولدي.. أين كنت كل تلك المدة؟

– أنا أعيش في مكناس الآن.

– أستعود مرة أخرى؟

– نعم، وفي أسرع وقت.. إنهم يحتاجونني هناك.

– وما الذي ذكَّرك بنا؟

– سؤال من الماضي يا عمي ظافر.

– الماضي.. لا أفهم ماذا تقصد؟

– مَن أبي يا عمي؟

– أبوك.. هو سامر.. أنا لا أفهم شيئًا.

– أنت تعلم ما أمارسه وما أنا قادر عليه.. أخبرني أحد الخدام أنني مدنس.

– وما معنى مدنس؟

– نصفي إنسان ونصفي شيطان.

– أنا لا أعرف شيئًا سوى أنك ابن سامر.

– أرجوك يا ظافر، أخبرني.

صمت ظافر قليلًا وشرد بناظريه بعيدًا قبل أن يقول:

– هذا سرُّ أبيك، وعدتُه قبل وفاته ألا أبوح به لأحد، ولكن يبدو أنه حان الوقت، ويجب أن تعلم كل شيء.

– حسنًا.. أخبرني كل شيء.

– نعم، أنت لست من هذا العالم.. لقد أحبت والدتك يومًا ما شيئًا ما من عالم آخر وحدث ما حدث بينهما ولكن سامر كان يعشقها فأخبرته أنها ليست عذراء، وأن بداخلها بذرة طفل يكبر من شخص آخر في المدينة.

– وماذا قال أبي؟

– أخبرها أن ذلك لا يشكل فارقًا عنده وأنه سوف يربي الطفل كما لو كان ولده.

– ما اسم أبي يا عمي ظافر؟

– لا نعلم مَن، وعندما أصبحتَ ناضجًا كشفت لك قواك.. هذا كل ما أخبرني به سامر أبوك.

– حسنًا يا ظافر.

نهضتُ، وأنا لا أعلم ما يجب أن أفعل، أنا واحد من هؤلاء المسوخ، ولكن كيف لم يُخبرني أبي كل تلك المدة؟ وأمي كيف لها أن تفعل ذلك؟

أشعر أنني أختنق، أتحرك ما بين البشر في الخارج وأشعر أني خائف منهم لأول مرة أشعر أني مختلف حقًّا عنهم إذا علموا بذلك سوف ينفر الجميع مني ومن الممكن أن يقتلوني، أنا خائف حقًّا.

إنني اليوم في أمسِّ الحاجة إلى أمي رغم أنني أبغضها بعد فعلتها هذه، كيف لها أن تقوى على ذلك؟ لقد باعت جسدها للشيطان وأصبحتُ أنا النتيجة، لا تنظروا إليّ هكذا، أنا لم أختر ذلك، يجب أن أبحث عن والدي، يجب أن أقتله حتى لا يقوى أي شيطان على مسٍّ بشريةٍ مرة أخرى.

صعدتُ على جوادي، والرجوع إلى مكناس وقصر المولى مرة أخرى، دلفتُ من بوابة القصر وقد وجدت عربات كثيرة تحمل عددًا لا حصر له من الجنود، لا ليس هذا أيضًا، لقد ذهبوا إلى المعركة

وحدهم، لقد أخبرت المولى ألا يذهبوا بدوني وكانت النتيجة أرواح هؤلاء البشر المساكين، إنني أُشفق عليكم وعلى عائلاتكم حقًّا.

دلفت إلى البهو فوجدتُ ميرا واقفة مرتدية ملابس تشبه ملابس الجنود ويقف راغب بجوارها أشار لي أن أبتِ، ولكنني لم أُعِره انتباهًا، ظهر المولى وهو ينزل من على الدرجات الرخامية ناظرًا لي بابتسامة متواضعة وتوجَّه ناحية ميرا ، أما أنا فتوجهتُ أنا إلى غرفتي.

جلستُ أبكي وحيدًا غريبًا في ذلك العالم بلا زوجة وبلا ابنة وبلا أم وبلا أب بشري أو حتى شيطاني، أنا مدنس، لا.. أنا لستُ كذلك، أنا بشري، وسوف أبقى بشريًّا وسوف أقضي على كل شيطان يتخذ من طريق الشر ملاذًا له، ولكنني الآن متعب، سوف أُغمض عيني قليلًا.

– كيف لكِ يا ميرا أن تفعلي ذلك؟

– ماذا فعلتَ يا أبي؟ أنا أريد أن أساعد الجنود.

– هذا ليس عملك.. إنني أخاف عليك يا ابنتي.

– لا تخف يا أبي.. دعني فقط أفعل ما أريد.

– فلتحترسي يا ميرا.

قالها راغب، وهو يقفز تجاهها كي تبتعد حتى لا يسقط عليها ذلك الجندي الذي هوى من أعلى.

نظر المولى فوجد كترا تبتسم بعد أن ألقت بذلك الجندي ثم قفزت هي الأخرى لتقف وسط ابنتها وزوجها والوزير الذي يقف مفزوعًا، فتحت فمها ليظهر ذيل العقرب خارجًا منه،وتقترب من المولى ولكنها تتوقف فجأة.

توقف ذيل العقرب وعاد مرة أخرى إلى داخل كترا وظل المولى ناظرًا لها وبدا وكأن قسمات وجهها تعبر عن خوف بسيط اعتلت الدهشة وجه راغب وميرا ثم انقضت عليها ميرا من الخلف قبل أن تُقدِمَ على فعلٍ شنيع آخر.

ألقت كترا بابنتها بعيدًا وبدأت في التقدم نحوها، لكنها شعرت بما يُشبه السوط يلتفّ حول رقبتها ويُشعرها بالاختناق، فظهرت أسنان طويلة بها ويخرج من فمها ذيل العقرب، ونظرت خلفها فوجدت الخليل واقفًا بعينيه البيضاوين مُمسكًا بذلك السوط.

قرَّر راغب أن يبتعد هو والمولى وميرا قليلًا لأنه شعر أن ما سيحدث الآن لن يكون خيرًا أبدًا، بدأ كترا والخليل يتحركان أمام بعضهما البعض، حاولت هي أن تجرحه بذيل العقرب، ولكنها فشلت في مرتها الأولى ونجحت في الثانية ثم وجهت يدها تجاهه فجثا الخليل أرضًا وبدأ في السعال ونظر إلى كترا فوجد خلفها ذلك الكائن.

بدأت كترا في الاقتراب أكثر وشعر الخليل بالوهن أكثر حتى اقتربت وأصبحت أمامه مباشرة، فنظر لها الخليل وابتسم قائلًا:

- ليس اليوم يا صديقي.. فلقد حصنت نفسي جيدًا.

أمسك بعنقها جيدًا وثبتها عند الحائط، ثم أخرج قارورة صغيرة ووضع محتواها في فمها فبدأت في السعال وسقطت أرضًا، فابتعد الخليل مسرعًا إلى الوراء ورفع يده في اتجاه كترا وبيده الأخرى أمسك كتابًا وبدأ الكلام:

- إن اليوم تنتهي قصتك مع ذلك الجسد.. استاش ملوش.

"آه كه ساكن بدن آمر به بيرون آمدن از آن بدون آسيب رساندن به حق پدران خود را از شياطين در برابر كسانى كه به شما اين قدرت و به او اجازه نداد ترک براى سوزاندن اكنون".

بدأ جسد كترا في التلوي وفتحت فمها ليخرج ذلك الذيل ثم يدخل مسرعًا واستمر الخليل في القاء تعويذته.

" اكنون سوخته اى در ميان قبايل نفرين ترک بدن بدون آسيب و به من كمک بنابراين بندگان من از الف ها و اكنون به ارمغان آورد به اصطاح به اصطاح ملوش ملوش شاذرشاذر".

فبدأ دخان خفيف يخرج من جسدها ومن فمها، واستمر سعالها حتى خرج ذلك العقرب وبدأ لونه يتحول من الأسود إلى الأحمر وبدأ يتلوى أرضًا حتى احترق وأصبح رمادًا.

جرى المولى مسرعًا إلى كترا وساعدها على النهوض ثم نظر الجميع إلى الخليل فوجدوه مبتسمًا ثم سقط أرضًا. ساعده راغب على

النهوض إلى غرفته فأخبره الخليل باعياء، أنه تعرّض للدغة العقرب، وأن الدواء موجود في حقيبته الخاصة، احتضنت ميرا والدها بشدة وأخبرتهم هي الأخرى أنها متعبة وأنها يجب أن ترتاح.

توقف الجميع فجأة عندما رأوا ذلك الرجل ذا اللحية البيضاء يقف أمامهم ووجهه منتفخ وأسفل عينيه شديد السواد ثم تقدم إليه المولى ودقق النظر.

– الشريف.. مِن أين جئت؟

– انقذني يا مولاي

– أنقذك مِمَّن؟

– عابد.. يريد أن يرسل لك رسالة.

– ما هي؟

– بعد ثلاث ليالٍ من اليوم سوف يخرج وحشه العظيم، وسوف تكون آخر ليلة تمر على مكناس.

– ماذا يريد؟ سوف أفعل له ما يريد؟

– إنه يريد قتلنا جميعًا، ويريد أن يصل إلى زنقط أولًا.

أمسك الشريف معدته، وتلوّى من الألم ثم بدأ جسده بأكمله في التضخم حتى انفجر كليًّا أمام أعينهم وتطايرت دماؤه وقطع صغيرة من لحمه وظهرت عقارب كثيرة سوداء، لكنها سرعان ما تحولت إلى

اللون الأحمر، وأصبحت رمادًا، فنظر الجميع إلى الخليل الذي كان مبتسمًا وهو مستندًا إلى راغب ثم قال قبل أن يُغشى عليه.

– لا تقلقوا لقد حصنت القصر من تلك العقارب اللعينة.

***

التفُّ الجميع حول كترا التي كانت تستلقي على السرير في غرفتها بعد أن أفاقت كان المولى جالسًا بجوارها يضمُّها إلى صدره وكان راغب مبتسمًا وميرا تقبع عند قدم أمِّها، لم يصدق أي منهم أنها تجاوزت تلك المحنة.

أحضرت الخادمة الطعام وبدأ المولى يأخذ من الصحن بيده ويضع في فم زوجته،في البداية كانت رفضت تناوله، ولكن بعد إلحاح شديد تناولت بعضًا منه حتى تستعيد قوتها مرة أخرى، كانت كترا حزينة تشعر أن شيئًا بداخلها لم يعُد معها من تلك الأزمة المشؤومة على الرغم من أنها لا تتذكر شيئًا مما حدث، فإن آخر شيء تتذكره أنها كانت على وشك أن تنام وأن آخر ما رأته هو ذلك العقرب الصغير.

دلف إلى الغرفة الخليل، وقد بدأ هو الآخر في استعادة عافيته وقفت ميرا مسرعة إليه واحتضنته أمام والدها ووالدتها فتنحنح الخليل ونظر إلى المولى فوجد وجه قد امتعض وعقد حاجبيه ونظر إليه في استياء وغضب شديدين مما دفع الخليل إلى أن قام بإنزال ذراعيها من حول رقبته واقترب من سرير كترا.

– كيف حالي سيدتي اليوم؟

- أشعر أنني أفضل.

- شكرًا لك أيها الساحر العظيم.. لقد أنقذت حياة أمي.

- هذا واجبي يا ميرا.

- يجب أن نكون على استعداد لما هو قادم.

- بالفعل سيدي راغب، لكنني أريد أن أعرف شيئًا.

- تفضل.

- مَن عابد؟

نظر الجميع إلى بعضهم البعض ثم نظروا إلى المولى لاحظ الخليل أن عينا ميرا على وشك أن تطلق العنان لبعض الدموع ولكنها كانت تحاول جاهدة أن توقفها ظل الصمت سيد المكان حتى قال المولى:

- إنه ساحر.. وقد نال جزاءه.

- أنت تعلم يا أبي أن عابد لم يكن يومًا ساحرًا.

- ميرا.

قالها المولى هامسًا ثم أكمل:

- كل ذلك وهو ليس ساحرًا..لقد كان يريد قتل أمك، لقد كان يريد الهلاك لنا هو المسؤول عن كل ذلك.

- وأين عابد الآن؟

– داخل سجن قارا.

– حسنًا يا مولاي.. إنني أريد أن أتحدث معك.

– فلتتحدث يا خليل.

– أنا وأنت فقط.

– اذهبوا وتحدثوا بعيدًا، واتركوا لي ميرا.

– لماذا يا أمي؟

– أريد أن أخبرك بأمر مهم.

نظر لها المولى بعد جملتها الأخيرة نظرة مطولة بعض الشيء فطفرت الدموع من كترا ثم ابتسم لها وأمسك بيدها ثم قبَّلها وأمر راغب بالانصراف ثم اتجه هو والخليل إلى بهو القصر.

وقفت ميرا واقتربت من كترا ومسحت دموعها بيديها ثم قبلت رأس أمها فطلبت منها كترا ان تجلس أمامها ثم تنهدت كترا وقالت:

– ما سأخبرك به الآن من الممكن أن يجعلك تفقدي صوابك، ولكن أطلبُ منكِ يا ابنتي ألا تقاطعيني.

– ماذا تريدين أن تقولي يا أمي؟

***

وقف المولى إبراهيم والخليل في وضع المواجهة كلاهما ينظر إلى الآخر، كان المولى يقف مبتسمًا هادئًا بشكل مبالغ فيه، اتجه بخطوات ثابتة وجلس على الكرسي الكبير الذي يقع تحت صورته التي رسمها له الرسام المصري.

أما الخليل فكان ينظر إليه بعين باردة هو الآخر يحاول أن يُقلّل من توتره إلى حدٍّ كبير، تحرَّك الساحر وجلس أمام المولى ونظر له بابتسامة أقل ما يُقال عنها إنها سخيفة فأعطاه إبراهيم الإشارة أن يبدأ الكلام.

- أخبرني بكل شيء عن عابد.

- ينحدر من عائلة الشريف.. هو ابن أبيه الأصغر كانت عائلتهم تمارس السحر، وأنت تعلم أنني أرفض ذلك الأمر هرب أبيه وأُودعت أنا عابد سجن قارا.

- وما علاقة ذلك الكلام بزنقط؟ ولماذا يريده؟

- لا أعلم .. مَن زنقط هذا؟

- أكنت حكيمًا في حكمك على عابد يا مولاي؟

- بالطبع، فأنا لم أظلم أحدًا يومًا.

- كن صريحًا معي وأخبرني.. هل أنت ساحر مثلنا؟

تعالت ضحكات المولى داخل القصر ثم قال:

– لا تكن سخيفًا يا خليل.. إذا كنت ساحرًا لما كنت سأحتاجك لإنقاذ مدينتي.

– يجب أن نتحضر للقاء ذلك الوحش القادم.. إن عابد ذلك ليس سهلًا

– ماذا سنفعل برأيك؟

– يجب أن يكون جيشنا على أتم استعداد.. فالمعركة القادمة لن تكون سهلة أبدًا.

صرخت ميرا فانتفض جسد المولى وجرى الخليل مسرعًا إلى غرفة كترا، فوجدوا ميرا تجلس باكية وهي تحتضن أمها، اقترب الخليل سريعًا وظلّ المولى واقفًا عند باب الغرفة، بدأ الخليل يتفحص نبضها، ثم نظر إلى ميرا التي وقفت وهي ممسكه بذراعه وتصرخ فيه قائلة:

– ما الذي حدث لأمي؟ أخبرني يا خليل.

– لقد فارقت كترا الحياة.

ارتمت ميرا على صدر الخليل وأجهشت في البكاء، فتحرَّك بها الخليل بعيدًا عن أمها ونظر إلى المولى الذي تحرك إلى كترا وجلس على سريرها ورفعها من مكانها وبدأ ينظر إلى وجهها وعينيها المغلقتين، ثم عيناه تدمعان حتى أجهش في البكاء.

– زوجتي.. محبوبتي.. استيقظي.

- هوّن عليك يا مولاي.

- ابتعد من هنا أنت وميرا.

- ولكن..

- فلتخرجا من هنا.

قالها المولى ونبرته قد تغيرت بعض الشيء، وقد أعطاهم ظهره فأومأ الخليل برأسه بطريقة تدلُّ على تفهُّمه لأمر ما ثم أخذ ميرا وخرجا من الغرفة، بمجرد أن ابتعدوا أغلق الباب من تلقاء نفسه وبدأ المولى يصرخ وعيناه تملؤهما الدموع، وبدأ يضمُّها إلى صدره ومع صرخاته العالية انطفأت أضواء الغرفة إلا من ضوء القمر الخافت الذي كان يتسلل من النافذة.

ظهر المولى في الظلام مع ضوء القمر وهو يحتضن كترا وبدأ جسده في التلوي، وكلما زاد في البكاء زادت سرعة تلوي جسده وفجأة افترش من ظهره جناحين عظيمين احتضن بهما كترا وظل هكذا.

كان يتابع ذلك المشهد قطٌّ أسود صغير كانت عيناه تذرفان الدموع.

***

عَمَّ البلاد الحزن وأصبح اللون الأسود يفترش الحوانيت والشوارع، الجميع حزين على وفاة زوجة المولى الأولى، الجميع قد تناسى الأزمة التي يتعرضون لها وغزو العقارب السوداء الكل يتذكر ما كنت تفعله تلك الملكة، كانت كترا تطعم الفقراء، وتُعطيهم من الثياب ما تيسر لها كانت تحافظ على أعمال الخير بشكل دائم.

داخل القصر كان الجميع صامتًا، الجميع ينفذ مهامه دون أن يتكلم مع الآخر، العبيد من بخارى أصبحوا رافضين أن يقدموا خدماتهم لأي سيدة أخرى داخل القصر أما عن وصيفاتها فمنهنَّ من ترجى المولى أن يجعله يخرج من هنا لأنهن لا يستطعن أن يعشن في القصر دونها، ومنهنَّ من تطوع لخدمة ميرا.

ظلت ميرا صامتة لا تتكلم مع أحد تمسك دائمًا بملحفة أمِّها وتحتضنها بشدة لا ترغب في شيء واحد سوى أن تعود لها كترا، دلف الخليل إلى غرفتها فخرجت الوصيفات بإشارة من ميرا رغبة منها في أن تبقى وحيدة مع الخليل، بمجرد أن خرجت الوصيفات حتى أجهشت في البكاء داخل حضن خليلها.

– اهدئي يا ميرا.

– لقد اشتقتُ إليك يا خليل.

– اشتقت إلي.. أم إلى عابد.

– عابد؟

– نعم.. لقد أخبرني راغب بكل شيء، وأنك كنتِ تعشقين عابد.

– ولكنني لم أعد كذلك الآن.. أنا الآن أحبك أنت.

– وأنا أيضًا يا ميرا، ولكن لا أستطيع أن أصدقك.

– صدقني يا خليل.. أنا لم أعد أثق بأحد غيرك الآن.

اقترب الخليل من ميرا ووضع كلتا يديه على وجنتيها ثم قبل جبينها وقال:

– بعد أن ينتهي كل هذا.. سوف نتزوج.

– أجادٌّ أنت فيما تقول؟

– نعم.

– وإذا لم يوافق أبي.

– سوف أجعله يوافق، وحتى إذا لم يوافق.. لن أتخلى عنك.

– أُحبُّك يا خليل.

– أحبُّك يا ميرا.

– أريد أن أطلب منك شيئًا؟

– فلتأمر أميرتي الصغيرة

- أريدك أن تقتل عابد لما فعله بأمي

- سوف ينتهي كل شيء قريبًا.. أعدك بذلك.

- وأنا أُصدق وعدك.

- ولكن يجب أن تعديني أنت.. أن تبقين بعيدة عن ذلك الأمر.

- أعدك يا خليل.

قبَّل الخليل رأسها ثم نهض وتوجَّه إلى غرفة المولى توقف عند الباب فوجد بعض الحراس يقفون فاقترب منهم وأخبرهم أن المولى يأمرهم أن يقفوا عند غرفة السيدة ميرا وأنه يريد ذلك سريعًا.

ثم انصرف الحارسان ونظر يمينًا ويسارًا ثم نقر على الباب وانتظر أن يأتيه ردٌّ ولكن لم يُجبه أحد وكان هذا ما يريد أن يتيقن منه أنه لا يوجد أحد بالداخل.

أمسك بمقبض الباب وفتحه بهدوء حتى دلف إلى الغرفة، كانت غرفة كبيرة يقبع في منتصفها سرير ضخم الأضواء كانت مغلقة النوافذ، كانت مغلقة أيضًا ومعلق عليها الستائر، لكن أهم ما يميز قصر المولى وتحديدًا الغرف أنها كانت تمتليء بمرايات كثيرة إلا تلك الغرفة.

بدا الخليل، وكأنه يبحث عن شيء ما، ظل يبحث عن أي شيء غامض يؤكد له شكه في المولى كونه ساحر مثله تمامًا، استوقفته تلك الصورة المعلقة للمولى التي تماثل الموضوعة في البهو اقترب منها

بشكل كبير كان الفرق الوحيد بينها وبين الأخرى أن حجمها كان مُضاعفًا من ناحية الارتفاع والعرض.

أمسك بها الخليل من الجانبين يريد أن يقربها أكثر من مستوى نظره، ولكنها كانت ترفض أن تتحرك،ولكن من الجهة اليمنى تحركت قليلًا عن الجهة اليسرى سريعًا، ما استنتج الخليل أنه باب مخفيّ.

بمجرد أن حاول الخليل أن يفتح ذلك الباب وجد المولى يقف خلفه وقد كان شديد الغضب، فأمسك بعنق الخليل وثبته في الحائط أمامه وقال غاضبًا:

– اسمع يا هذا.. أنت هنا لمهمة محددة.. لا تعبث فيما لا يخصك.

– اهدأ يا مولاي.. لقد أتيتُ هنا بالخطأ.

– اصمت..أريدُك أن تستمع لما سأقوله..أنا لم أعد أحتمل ذلك الأمر الذي يحدث لي.. لقد خسرتُ كل شيء، خسرت زوجتي، لا أريد أن أخسر مدينتي.. اليوم سوف نجتمع مع الوزير لنحدد ما سنفعله.

– حسنًا.. اتركني يا مولاي إهدأ، واتركني..

تركه المولى وأعطاه ظهره حيث كانت عيناه تميلان قليلًا إلى السواد وأنيابه تحاول الظهور حتى قال الخليل:

– كيف لرجل في مثل سنك.. أن يتمتع بتلك القوة البدينة؟

- هذا ليس من شأنك.

قالها المولى بنبرته الغريبة ثم انصرف الخليل مسرعًا خارج الغرفة.

***

توجَّه الخليل إلى غرفته وقد زادَ الشك في ماهية المولى إبراهيم بداخله، فقرَّر أن يعمل بنصيحة عمه ظافر أن يستغلَّ قُدراته.

أخرجَ كتابه الخاص ووضعه أمامه ثم أغمض عينيه وفتحهما مرة أخرى فتحولتا إلى اللون الأبيض، وقرَّر أن يستدعي شخصًا ما لمساعدته، أحد الخدام الخاضعين له وهو يُدعى سالم.

"يا من لي الحق في استدعائك يا من عملت على طاعتي وتلبية أوامري، آمرك يا سالم أن تأتيني في التو واللحظة، آتِني مستجيبًا يا سالم، سيدك يريدك عونًا.. الوحا الوحا العجل العجل الساعة الساعة".

شعر الخليل برياح باردة تجتاح المكان، فعلم أن تلك هي إشارة على حضور خادمه سالم، حيث ظهر في ركن مظلم من الغرفة كائن يقف مُعطيًا ظهره للخليل، فتكلم ذلك الكائن بصوت به حشرجة بسيطة:

- السمع والطاعة لسيدي الخليل.

- أريدك أن تخبرني عن أمر ما.

– ما هو يا سيدي؟

– من الملك زنقط؟

– إنه ملكنا جميعًا.. ملك عظيم، ولكنه لم يعد موجود الآن.

– وأين هو؟

– لا نعلم.

– أيمكنك أن تخبرني عنه قليلًا؟

كان من أعدل ملوك الشياطين، كان يحكمنا ويخضع الجميع للقوانين، كان يشفق على البشر كثيرًا، من كان يخترق قانونه الأعظم كان عُرضة للموت.

– وما قانونه الأعظم؟

– ألا نتدخل في عالم البشر.

– ولماذا اختفى من عالمكم؟

– لقد عاقَبَ نفسه يا سيدي.. لأنه كسر القانون.

– كسره كيف؟

لقد عَشِقَ بشرية، وأدركَ أن ما فعله لا يمكن إصلاحه فتركها وذهبَ، وعاقَبَ نفسه بأنه لم يراها مرة أخرى، وانتشر بيننا أن هناك ولدًا من نسله سوف يرث جميع قدرات الملك زنقط، وسوف يصبح ساحرًا عظيمًا بين البشر.

- حسنًا يا سالم.

- أريد أن أُوضِّح لك شيئًا، سيدي.

- ما هو؟

- لقد كنا نعلم أنا وخدامك الآخرون..أنك الشخص المنشود، أنك ابن زنقط العظيم، لذلك قررنا أن نكون في خدمتك وعونًا لك لأنك وارث العرش، ولأنك الساحر الأعظم.

- وارث العرش!

- نعم.. أنت ملكنا، وسوف نكون جانبك دائمًا.

- بالفعل فأنا سوف أحتاج إليكم قريبًا جدًّا، سوف أحتاج لجيوش منكم.

- السمع والطاعة لمولاي الخليل.

***

في سجن قارا، سيطرت على الظام نوبة غضب عارمة، وكان يصدر زئيره بشكل مستمر وأحيانًا أخرى يهدأ وأحيانًا أخرى يمسك ببعض البشر داخل السجن ويفتك بهم، لم يدرك عابد ما الذي أصاب والده وما سِرُّ كل هذا التغير؟

اقترب الظام من مكان جلوس عابد ثم نظر إليه نظرة تنمُّ عن غضب كبير، وأغمض عينيه السوداوين في محاولة منه أن يهدأ ثم قال:

– اليوم يا عابد سوف نظهر لهم معًا.

– ماذا؟

– سوف نخرج لهم،سوف نذهب إلى المولى نخبره بتحذيرنا الأخير.

– ولكن يا أبي؟

– اصمت يا مدنس..اليوم نحذرهم غدًا نخرج بوحشنا العظيم..

هيا يا صهيل.

– أمرك يا مولاي.

***

اجتمع كل من راغب والمولى إبراهيم والخليل وقائد الجيش داخل الركن الحربي ظل المولى صامتًا والجميع منتظرًا أن يعلن خطته القادمة للتصدي لعابد وجيشه من العقارب.

بدأ راغب حديثه موضحًا الخطة التي سوف يتبعونها ولكنه لاحظ أن المولى لا يعيره انتباهًا معظم الوقت.

– أأنت تنصت لي يا مولاي؟

– ماذا كنت تقول يا راغب؟

– كنت أوضح الخطة الدفاعية للقصر.

– لا يجب أن نتهاون مع ذلك المشعوذ.

- اسمح لي أن أوضح شيئًا يا مولاي.

- تفضَّل يا خليل.

- لا يجب أن نحاربهم هنا.. يجب أن نذهب إليه في مكانه.

- أيمكنك أن توضح أكثر يا خليل!.

قالها راغب في اهتمام.

- أنا أقترح أن نتزل سجن قارا.

- لقد جُن ساحرك الأعظم يا راغب.

- لا لم أُجن يا مولاي، ولكن إذا فاجأناه نحن ونزلنا إلى سجن قارا فهذا شيء لن يتوقعه عابد وعقاربه أبدًا، وإذا قضينا عليه أولًا فلن يخرج ذلك الوحش العظيم.

- ولكننا في تلك الحالة نحتاج إلى أكبر عدد من الجنود.

- لا تحمل هم ذلك يا راغب.. سوف أُحرِّك الجيش الثاني من عبيد بخاري فأنت تعلم أني لا أستخدمهم سوى في الأمور الطارئة.

- قرار صائب يا مولاي.

- أما بالنسبة لي فسوف أحصن القصر أكثر.

- ألديك شيئًا آخر لتضيفه يا مولاي.

- لا يجب أن نخسر تلك المعركة مهما يكلف الأمر.

بمجرد أن انتهى المولى من جملته الأخيرة شعر الجميع برياح عظيمة تجتاح المكان وبدأ وكأن هناك زلزالًا يهزُّ الأرض من تحت أقدامهم، سقطت بعض الشمعدانات المستخدمة للإنارة، حيث كانت معلقة، ثم فجأة انقطعت كل الأضواء وسيطر على المكان ضوء أحمر.

لاحظ الخليل وجود حركات لكيانات في ذلك الضوء الأحمر كان كل همه في تلك اللحظة ألا يمسَّ المولى وراغب أي سوء، اقترب منهم استعدادًا لأي مفاجأة، ولكن توقفت كل تلك الأمور والإضاءة اشتعلت مرة أخرى ليظهر كلٌّ من صهيل والظام وعابد أمامهم، فتحدث الظام قائلًا:

– جئنا اليوم بسلام، ولكن اليوم فقط.

– مَن أنت وماذا تريد؟

قالها الخليل.. فعقَّب الظام مسرعًا.

– أنا كابوس مكناس العظيم.. أنا الظام.

– لماذا جئت؟ سوف ترحل عن مكناس قريبًا.

– جئت آخذ ما هو حقٌّ لي.

– وما حقك من وجه نظرك؟

– صولجان زنقط.

- نحن لا نعرف مَن زنقط هذا.

- كيف ذلك وأنت تقف إلى جانبه أيها الساحر العظيم.

صُعِق الخليل من تلك الجملة، ونظر إلى راغب الذي كانت تعتليه علامات الدهشة، وحدقتا عينيه متسعتين بشكل كبير تكادان تخرجان من مكانهما، ثم نطق الخليل مندهشًا:

- أنت يا راغب!

فعقَّب القط الأسود مسرعًا:

- كلا يا أبله.. جانبك الآخر.

ثم نظر الخليل تجاه جانبه الآخر حيث كان يقف المولى إبراهيم فتحرَّك المولى ليقترب قليلًا من الظام ووقف الاثنان.

- كيف لك أن تهرب من قيدي؟

- هذا الفضل يعود إلى ولدي المدنس.. عابد.

- ماذا؟ عابد ولدك؟

- خدعتني قديمًا بقولك إنك قتلته، ولكنه يقف الآن أمامك وسوف يقتلك بيده.

- هذا ليس منطقيًّا.

- سوف أقضي عليك كما كنت تريد أن تقضي عليَّ.

قالها عابد في غضب.

تحرَّك الخليل وأشهر سيفه في وجه عابد والظام ثم قال:

– لن يمسَّ أحدٌ المولى إبراهيم.

– أنزل سيفك أيها الساحر.

قالها الظام ثم تابَعَ:

– فلقاؤنا ليس اليوم..اليوم تتكلم الأفواه، وغدًا تنطق السيوف والحراب.

سوف يكون هلاككم على نفس الأرض التي دنستموها بأعمالكم.

إن الأرض هذه مدنسة منذ سنين والذي دنسها هو ملكك الذي تدافع عنه الآن.

قرر عابد أن يقتحم تلك المحادثة في محاولة منه لاستمالة الخليل.

– فلتنضم إلينا يا خليل فأنا على علم أنك لست بشريًّا، وأنك مثلي مدنس.

– عابد.. أضعف ساحر في مكناس..يتحدث.

– أنا لست بضعيف يا خليل.. أنا فقط كنتُ لا أعرف كيفية استخدام قواي.

– سوف أقتلك يا عابد، وأعيدك أيها القط الأسود إلى سجنك مرة أخرى.

ابتسم الظام بعد أن افترش جناحيه وكأنه يريد أن يعبر له عن مدى قوته أمامه فعلق زنقط بسخرية.

- استطعتَ أن تُعيد جناحيك مرة أخرى..بعد أن قصصتهما لك.

- كل الفضل يعود لولدي وتعويذته التي أعادت لي القوة.

كان صهيل ينظر إلى الخليل من وقت إلى آخر ثم قرر فجأة الكلام.

- إنني أعرفك أيها الساحر.. أنت..لا..لا يمكن لذلك أن يحدث.

- ماذا تقصد يا هذا..تكلم.

- سيدي الظام هذا ليس ساحرًا عاديًا.. إنه الساحر الأعظم.

- ماذا تقول يا صنهور؟ أنا الساحر الأعظم.. عابد بن الظام.

- اصمت يا صنهور..لقاؤنا يقترب وسوف يظهر من الأعظم فينا.

أمسك القط الأسود بمخالبه صنهور وعابد وبدأ يُرفرف بجناحيه العظيمين وبدأ يطير عاليًا حتى خرج من الشرفة العليا في القصر عائدًا بهم إلى سجنهم، ثم نظر راغب إلى المولى وكذلك الخليل، فاقترب المولى من الساحر وقال في تعجُّب:

- لماذا دافعت عني بعد أن عرفت من أكون؟

نظر له الخليل وقد عيناه تدمعان وأجابه في انكسار:

- لأنك ببساطة.. أبي؟

الساحر الأعظم

لقد كانت تلك هي الحقيقة التي أخبرني إياها عمي ظافر قبل أن أغادره، حينما تقدَّمت إلى الباب كي أرحل، ولكن استوقفني صوته:

– انتظر يا خليل.

– أهناك شيء آخر يا عمي؟

– نعم.. فلقد أخبرني سامر باسم أبيك الحقيقي.

– وما هو؟

قال لي إن أمك وهي على فراش الموت قررت أن تعترف له بما اقترفت مع أحد الملوك من العالم الآخر.

– ملك؟

– نعم والدك ملك ذو بطش كبير، ويُدعى زنقط.. نعم الملك زنقط.

– أنا لا أقوى على استيعاب أي شيء مما تقول.

– اسمع يا بني، لا تلُم والدتك على فعلتها تلك، نحن لا نعلم ما كان دافعها لذلك.

– لا يوجد أي دافع يجعلها تبيع جسدها لشيطان.

– يجب أن تفكر جيدًا قبل أن تتخذ أي قرار.. يجب أن تعلم أنك وُلدت كذلك لغاية ما..استغل ما أنت قادر على فعله،استغل قدراتك يا خليل.

***

هبط الشيطان بجناحيه إلى داخل السجن وهبط معه خادمه صنهور وولده عابد وبمجرد أن حطّ عابد قدمه على الأرض تحركت العقارب وكأنها تعبر عن مدى اشتياقها له بدؤوا يتسلقون ملابسه ومنهم من وصل إلى وجه وهو يبتسم بمشاعرهم تلك.

نظر له الظام بتفاخر شديد، وبدأ صنهور يفكر فيما توسمه في الخليل ثم وجَّه عابد نظره له وقال متفاخرًا:

– من الساحر الأعظم برأيك أيها الخادم؟

– إنه الخليل.

توجَّه عابد مسرعًا له وسدَّد له لكمة فسقط أرضًا، والدماء تسيل من فَكّه فنظر صهيل بعين دامعة إلى سيده الظام الذي قرر الكلام:

- أخبرني ما تعرفه يا صنهور.

- إن الخليل به قوة لا يمكن أن تكون ببشري.. إنه مدنس وقد رأيته يوم مولده.

- لا تستمع لكلام ذلك الخادم يا أبي.

قالها عابد في غضب.

- اصمت يا عابد.

- ولكن يا ظام.. ليس هناك ساحر عظيم غيري هنا.. أنا الأقوى بمكناس.

- اذهب من هنا، أكمل اللهو مع عقاربك، واصمت كما أمرتُك، والآن يا صنهور..

- أمرك يا مولاي.

- مَن أبوه؟

- إنه الملك زنقط.

***

كان صنهور يقف متخفيًا في إحدى محاولاته كي يحصل على الصولجان من الملك زنقط، ليستميل قلب سيده الظام، حين توجَّه إلى القاعة التي يوجود بها زنقط، وقف مستترًا فوجد زنقط يقف بعينيه الحمراوين وقرنيه الصغيرين، كان معه كائن لا يرى منه صنهور شيئًا ولكن كان صوته به حشرجة بسيطة.

– ماذا أفعل يا سالم.. لم أستطع أن أمنع نفسي

– اهدأ يا مولاي.. بالتأكيد هناك حَلٌّ.

– لقد عشقتُها.. لم يكن هذا بيدي.

– أنعرف نحن الشياطين والجان العشق يا سيدي؟

– بالطبع يا سالم لقد كنت في بادئ الأمر أحسد هؤلاء البشر على قدرتهم على العشق لذلك لم أتخيل يومًا أنني سوف أعشق بشرية أنه شعور يجعلك قويًا وسعيدًا برغم كل شيء حولك، إنها نشوة فريدة من نوعها.

– والآن يا مولاي ماذا تقترح أن نفعل؟

– يجب أن تحرص على أن يولد الطفل في أمان، وأريدك أن تحرص على سلامته حتى ينضج وحين يأتي الوقت اكشف له قواه.

– أمرك يا مولاي.

– أما أنا فيجب أن أختفي من عالمنا، يجب أن أخضع للقانون..سوف أنفي نفسي..فلتعدني يا سالم أن تحافظ على حياة ولدي.

– أعدك يا مولاي.. سوف أكون له خليل وصديق.

– نعم ..سوف يكون اسمه خليل.. الخليل الساحر الأعظم .

– السمع والطاعة لمولاي زنقط..

– والآن اذهب وابقَ معه.. إنه يوم مولده.

ظَلَّ المولى أو زنقط صامتًا جالسًا أمام الخليل لا يجد ما يقوله بالأخص بعد أن قصَّ الاثنان لبعضهما البعض ما حدث مع سالم الخادم، نهض المولى من مجلسه واتجه إلى النافذة ونظر إلى مكناس التي أصبحت مُشوَّهة وقد احترقت أشجارها.

نهض الخليل في وضع مماثل له واقترب منه ولكنه كان لا ينظر إلى مكناس، كان ينظر إلى وجه أبيه الآخر أو وجه المولى، أسئلة كثيرة كانت تجوب بخاطر الخليل، من داخله قد عزم على قتل أبيه حين يعرف من هو، ولكنه الآن لا يقوى، ففي النهاية هو والده، ثم قطع ذلك الصمت زنقط قائلًا:

– أستظل تنظر لي هكذا؟

– لا أستطيع أن أحدد ما بداخلي لك كراهية أم حب؟

– من الممكن أن تسميه اشتياقًا.

– ولكن أبي البشري لم يحرمني يومًا من حنانه.

– لقد كنت أُراقبك دومًا يا بني.

– لماذا لم تخبرني من البداية؟

– كان سبب رفضي لوجودك هنا.. إنني لم أكن أقوى على النظر في عينك.. فقلد ورثتك أمك عينها أما باقي صفاتك..

– أنا لا أُشبه أحدًا غير أمي.. التي باعت جسدها لك.

– لا تكن قاسيًا في الحكم عليها.. فإننا عشقنا.

– أهناك شيطان يعرف معنى العشق؟

– دعك من هذا..أنت وريثي يجب أن تكون على استعداد لما ستغدو عليه.

– لن أصبح يومًا مثلك.. أنا بشري وسوف أموتُ هكذا.

– هذا ليس اختيارًا.. قُضي الأمر.. أنت وريث عرش زنقط الوحيد.

– سوف أُنهي مهمتي هنا وأرحل.

– لن أسمح لك بالرحيل الآن.

– لماذا؟ ألم تكن تريدني أن أرحل من البداية؟

– ولكنك الآن تعرف كل شيء.

– أنت جبان ..أتعلم ذلك؟

– جبان!

– نعم.. إنك حتى لا تقوى على أن تريني وجهك الحقيقي. تظهر لي في صورة المولى.. ومن المولى هذا الذي تجلس مكانه؟

– إنه لملك عظيم..أعظم ملوك المغرب..لم أكن أريد أن أصبح مكانه هنا، ولكنه كان الشخص الوحيد المناسب حيث كان يُحتضر أمام زوجته كترا وأنا، كنتُ أريدُ أن أكون بقربك في نفس البلاد التي أنت فيها، وعندما مات أخفيت جثته وأصبحت أنا المولى ولم يعرف

أحد شيئًا طوال تلك السنوات والفضل يعود لتلك القلادة التي تحمل تعويذة الإخفاء.

– سوف يعرف الجميع الآن.. سوف أخبر الجميع.

– أخبر الجميع إلا ميرا..لا أريدُها أن تعلم أن من ربَّاها هو شيطان.

– وأين جثة المولى؟

– فلتأتِ معي.

تحرَّك الخليل وراء أبيه خرجا من الركن الحربي واتخذا من السلم الرخامي وسيلة للصعود إلى أعلى، فوقف زنقط أمام غرفته وطلب من الخليل أن يدخل، داخل الغرفة وتحديدًا أمام صورة المولى أمسك زنقط بجهتها اليُمنى وفتحها.

كانت الصورة كما استنتج الخليل من قبل ما هي إلا باب كان هذا الباب يؤدي إلى غرفة عظيمة بها تابوت رخامي نُقشت عليه رسوم زخرفية وكان الرخام ملوَّن ومزين بالأرابيسك وكتب عليه من الجهة الأمامية بخط الثلث المولى إبراهيم.

اقترب منه زنقط وأزاح ذلك الغطاء الرخامي بسهولة كبيرة ونظر إلى الوجه الذي كان منتحلًا صورته لسنوات عديدة، ثم طلب من الخليل أن يقترب فنظر فوجد جثمان المولى يرقد فقال الخليل:

كيف لجسده أن يبقى دون أن يبلى كل تلك السنوات؟

إنه طلسم نقشته على جسده وهو الذي يمدُّ قلادتي بالقوة حتى أظلَّ مُحافظًا على هيئته.

– ما هذا؟

قالها الخليل بعد أن نظر إلى صندوق صغير كان موجودًا بالغرفة، كان صندوقًا قديمًا متهالكًا بعض الشيء عليه نقوش تميل أكثر إلى طلاسم، فذهب زنقط ناحية ذلك الصندوق وأحضره إلى الخليل.

– قم بفتحه لتعرف بنفسك.

فتح الخليل الصندوق ليظهر ضوء أحمر يشعُّ منه وأنار الغرفة بأكملها حتى بدأ الضوء يهدأ وظهر الصولجان.

– هذا صولجان زنقط.

– هذا ما يسعى إليه الظام يا خليل.

– لا تقلق، سوف يموت قبل أن يصل إليه.

– أستسامحني في يومٍ ما؟

–إنني هنا لمهمة محددة سوف أعمل على أن أنجزها سريعًا وأرحل.

– ألا تريد أن ترى وجه أبيك الحقيقي؟

لم يُجبه الخليل وأعطاه الصندوق بعد أن أغلقه ثم أدار ظهره ليتوجه إلى الباب، ولكن ما استوقفه أنه سمع صوت طقطقة عظام خلفه، فنظر مرة أخرى تجاه زنقط فوجده ينزع تلك القلادة من رقبته ويلقيها بعيدًا، وبدأ جسده يتلوى وتتساقط الملابس من عليه.

وبدأ حجمه يزداد شيئًا فشيئًا وافترش جناحين وظهر قرنين صغيرين وجلده المُشقق الذي يحمل كثيرًا من الشعر الأسود، وعيناه الحمراوان وحوافر ضخمة، وأنياب صغيرة، وأرجل منحنية إلى الوراء بشكل بسيط، ورفرف بجناحيه قليلًا في الهواء وكأنه اشتاق إلى ذلك الشعور، نظر إلى ولده فوجده يُتابع كل ذلك وحدقتا عينيه متسعتان وقد اشتمَّ رائحة خوف قليلة تنبعث منه.

***

كانت ميرا تقف أمام البحيرة الصغيرة التي دائمًا ما كانت تتلقى بعابد أمامها تتذكر كل ما كان يجمعهم من لحظات حب وعشق ولكنها الآن تكنُّ له مشاعر كُرهٍ أكبر من حبها، فهو قاتل أمها.

جلست على تلك الصخرة فشعرت بأقدام تتقدم نحوها من الخلف فوضعت يدها على سيفها حيث تكون على استعداد لا شيء، اقتربت الخطوات وأصبحت خلفها مباشرة فأشهرت سيفها حيث كان يقف الخليل.

– ما هذا يا ميرا؟

– اعذرني يا خليل..لقد كنتُ خائفة قليلًا.

– لا تخافي، ولكنك تعرفين كيفية استخدام السيف.

– إذًا كنت تشكُّ في ذلك فتأكد بنفسك.

أشارت له تجاه سيفه الذي أصبح يحمله دائمًا معه، فابتسم ومال رأسه قليلًا للأمام بعد أن رفع حاجبيه بسخرية منها فأشهر سيفه قائلًا:

- حسنًا.. هيا بنا.

بدأا يتبارزان وأبدت ميرا شيئًا من الضعف في البداية حيث ضرب الخليل على سيفها فسقطت هي والسيف، ثم نهضت مسرعة وأعطته ضربات متعددة على سيفه مما جعله يتقهقر قليلًا ثم قرر يضيف شيئًا من الحديث في أثناء مبارزتهما تلك.

- من علمك القتال بهذه الطريقة؟

- الوزير راغب.. حينما كنت صغيرة.

- إنك مُبارِزة رائعة حقًّا.

- أخبرني.. من سيخسر؟ ماذا سيفعل للآخر؟

- أي شيء يطلبه.

قالت ميرا ذلك، ثم صرخت مشجعة لنفسها وضربت على سيف الخليل فسقط أرضًا ثم رفعت سيفها في الهواء لتهوى به عليه ولكنه ابتعد ونهض مسرعًا.

- ما هذا يا ميرا؟

- أنا أريد أن أنتصر.

- سوف تقتليني.

- لا تقاتل مثل السيدات.

- حسنًا.. أنت مَن طلبتِ ذلك.

جرى الخليل مسرعًا وقد نزل بسيفه على سيفها بقوة ثم استدار وضربه بقدمه على قدمها فسقطت ميرا ثم أصدرت صرخة تعبر عن ألمٍ شديد، فاقترب منها خليل مسرعًا:

– أعتذر يا ميرا، ولكن أنت مَن طلبتِ ذلك.

– لا عليك.. أنا بخير.

– أنا آسف يا ميرا.

ضربته ميرا بقدمها فسقط ونهضت هي وجلست فوقة:

– أنتِ مخادعة حقًّا.

– إنه كيد النساء يا خليل.

– حسنًا، ماذا تريدين أن أفعل لكِ؟

– أريد أن أنزل معكم إلى سجن قارا.

امتعض وجه الخليل بعد أن كان يبتسم ثم أزاح ميرا من فوقه ونهض وجلس على تلك الصخرة، فاقتربت منه ميرا ووضعت إحدى يديها على رأسه لتجفف له قطرات العرق فنظر لها مبتسمًا:

– إنني أشعر بالخوف عليك.

– لا تقلق.. لقد رأيت كم أنا بارعة في القتال.

– ولكن لماذا يا ميرا؟

– أريد أن أقتل عابد بيدى.. يجب أن أنتقم منه.

– ولكن يجب أن تعديني بشيء.

– ما هو؟

– أن تبقي دائمًا بقُربي.

– سأظل دائمًا بجانبك.

– أحبُّك يا ميرا.

– أعشقُك يا خليل.

– فلتأتين معي إذًا، الآن لتتعرفي إلى خطتنا.

تحرك الخليل ومعه ميرا متوجهين إلى القصر، ودلفا إلى الركن الحربي، حيث كان يقف المولى مرتديًا درعه الخاصة بالحروب والسيف يتخذ مكانه وخوذته تقبع بجانبه، وكذلك كان راغب مرتديًا ملابس حربية، وكان يقف قائد الجيش كذلك.

فوجئ الجميع بدخول ميرا وهي مرتدية الدرع الخاصة بها فنظر المولى إلى راغب الذي لم يعلق بكلمة على ما رآه ومن ورائها دلف الخليل واجتمع الجميع حول طاولة الاجتماع وبدأ راغب كلامه:

– أيأذن لي مولاي بالكلام؟

– تفضل يا صديقي.

– الجيش الثاني من عبيد بخارى يصطف خارجًا كما أمرت، وهو على أتمِّ استعداد، أما الجنود الذي سيهبطون معك إلى داخل السجن فقد رفض معظمهم.

– وكيف ذلك؟

– إنهم خائفون يا مولاي.. إن لديهم أسرًا يرعونها.

– وما العمل إذًا؟

– لقد استطعتُ أن أُقنع فرقة واحدة من الجيش أن تنضم لك أنت والخليل.

– وأنا أيضًا معهم.

– لا يا ميرا.. هذا لن يحدث؟

– لن أبقى هنا، وأشاهد.

– نعم يا مولاي.. إن عابد كما تعلم لا يمكنك السيطرة عليه إلا من خلال ميرا.

– أهذا ما تراه يا خليل.

– بالطبع يا مولاي.

– أتريد أن تضيف شيئًا، مولاي.

– بالطبع يا راغب.. سوف تبقى أنت وقائد الجيش بجزء من عبيد بخارى هنا تحسبًا لخروج ذلك الوحش وأنا والخليل وميرا، والفرقة المختارة سنترل إلى سجن قارا يجب أن يكون الخليل على أتمِّ استعداد لأي مفاجئة سوف تحدث.

– لا تقلق، مولاي، فسوف أحضر بعض المساعدة.

حسنًا.. هنا يبقى شيء واحد يجب أن يطوق رماة الأسهم القصر وما حوله من بيوت والمنطقة التي يقبع بها سجن قارا عند الفوهة التي سنهبط من خلالها.

راغب.

أمر مولاي.

ماذا عن الزيوت الساخنة.

تم تجهيزها يا مولاي.

"ماذا سنفعل بتلك الزيوت؟"، قالها الخليل متسائلًا فأجابه راغب:

سوف نسكبها داخل فوهات السجن ونشعلها لتساعدنا على توفير الإضاءة بالداخل.

"أصبت يا راغب" قال المولى ثم تابع:

بمجرد خروجنا من هنا، ستغلق أبواب القصر.. فسوف يحاول عابد والظام السيطرة عليه ويكون رماة الأسهم على أتم استعداد بالأسهم المشتعلة، سوف تساعدهم المزاغل* الموجودة في البوابة أن يلقوا الأسهم منها:

والآن اذهبوا جميعًا إلى الخارج، فأنا أريد أن أتحدث مع ميرا.

أمر مولاي.

قالها راغب مشيرًا إلى الجنود، وقائد الجيش أن ينصرفوا ثم تَبعَه الخليل ناظرًا تارة إلى المولى وتارة أخرى إلى ميرا حتى وصل إلى الباب، نظر المولى إلى ميرا وابتسم ثم أمسك بيدها وقال:

– أنت تعلمين أنكِ فتاة أبيكِ المُدلَّلة.

– أعلمُ يا أبي

– لا أريدُ أن أخسرك اليوم يا ميرا.

– وأنا لن أتحمل خسارتك.

– أنت تشبهين أمَّك إلى حدٍّ كبير.

– وقلبي يُشبه قلبك بشكل كبير.

– لو كنتُ أعلم أن سجني لعابد سوف يؤدي إلى تلك الأمور.. لما كنتُ فعلتُ.

– سوف نقتله اليوم معًا يا أبي.

– سوف أكون دائمًا خلفك.. أحميك من أي شيء.

– لا أريد أن أنظر خلفي ولا أجدك.

– إن لم تجديني فسوف تجدين الخليل، سوف يكون خير عونٍ لكِ.

– لا عون لي سواك يا مولى.. يا حاكم المغرب ومكناس.

---

* تعد المزاغل العنصر الدفاعي الذي يسمح للمتمرسين بالسور الدفاع عن المدينة تجاه أي قوات غازية

- أخاف أن ينتهي حكمي لهذه المدينة اليوم.

- سوف تظل حاكمها ومَلِكَ رعاياها.

- أنتِ وريثتي هنا.. إذا لم أعد معكم سوف تكونين حاكمة هذه المدينة.

- لا تقل هذا يا أبي.

اقتربت ميرا لحضن أبيها وهي تبكي، أما هو فقد تحولت عيناه إلى اللون الأحمر، وبدا وكأنه يبكي، فإن من يبكي الآن ليس المولى إنما هو زنقط.

***

علا صوت زمجرة ذلك الوحش داخل سجن قارا، حيث كان عابد يقف أمام الركن المظلم الذي يقبع به ذلك الوحش، وقد كان ملقى على الأرض بجواره أحد السجناء، أمسكه عابد بلا رحمة، وألقاه إلى ذلك الركن المظلم.

كان الظام يقف مستمتعًا بصوت طقطقة عظام ذلك البشري، وكان يبتسم ويتمايل برأسه وكأنه يستمع إلى سمفونية ما، ثم ظهر صنهور من ورائهم بذيله القصير وأنيابه الضئيلة، وقد كان يشتمُّ رائحة الدماء السائلة على الأرض.

نظر له الظام ثم نظر إلى ذلك الرجل تحت قدميه حيث سكان سيقدمه وجبة إلى الوحش العظيم، ثم قال:

- إذا كنت تشتهيه يا صنهور فهو لك.

- فلتجعله يأكله يا أبي، فإن وحشنا العظيم سوف يخرج اليوم وسوف يلتهم أكبر عدد يريده.

- ألم تقل يا سيدي بعد ثلاث ليالٍ.. أي غدًا؟

- عنصر المفاجأة أيها الخادم المطيع.. خذه يا صنهور.

ظل صنهور صامتًا واختفت أنيابه وتوقف لعابه الذي يسيل على الأرض، وبدأ يفكر في مقدار حقارته، وأنه يجب أن يضع حدًا لتلك اللعنة، يجب عليه أن يرفض تناول لحم البشري. يجب أن يقول لسيده لا ولو مرةً واحدة.

- لن أتناول هذا الرجل.

- ماذا؟!

- نعم اليوم تنتهي عبوديتك لي يا ظام.

- أنا سيدك، كيف تجرؤ على ذلك الكلام.

- لقد فضّلت يومًا لحم الجنسي الذي قدمته لي، ولكني اليوم أرفضه وبهذا ينتهي حكمك عليَّ.

- أُجننت؟

- لا.. لقد تحرّرتُ.

قالها صنهور وقد جرى مسرعًا على الحائط متجهًا إلى الفوَّهة حتى خرج من سجن قارا، ثم قال عابد:

- لن نحتاجه بعد اليوم يا أبي والآن لنحصن سجننا بالجيش.

تحرَّك عابد إلى منتصف القاعة التي يقف بها ثم بدأ يُحرِّك يديه في الهواء ويقبضهما إلى الأرض ثم يبسطهما ليصطف أمامه جيش من العقارب السوداء في انتظار أن يُملي عليهم أوامره.

اقتربَ من أبيه وقد أخرج سكينًا صغيرة وأمسك براحة الظام وجرحه فترفت بضع قطرات من دمائه السوداء، فرسم به عابد على الأرض مثلثًا كبيرًا بداخله بعض الحروف والأرقام بشكل يظهر للناظر إنه عشوائي، ولكن بالنسبة لعابد فهو منظم، ثم وقف مرة أخرى وقال:

"بدم ملككم أمركم أن تصبحوا جنودًا.. جنودًا من العالم السفلي لتحمينا، لا تتركوا عدوًا لنا إلا وتقتلوه، احموا ذلك المكان منهم،اليوم سوف نخرج لهم،وسوف نستولي على مكناس".

وبدأت العقارب في التلوي أمام عابد وأصبحت تصدر صريرًا مزعجًا، وبدأ حجمها يكبر ويتزايد طولها لتشكل كيانًا أسود مقسم كالهيئة البشرية، ولكنهم محتفظون بذيولهم العقربية.

يحملون في أيديهم سيوفًا مضاءة بالأحمر وأيديهم مضاءة كذلك، نظر الظام متفاخرًا بهذا الجيش العظيم، ثم نظر إلى عابد وقال بصوته المرعب:

- الآن لنُحرّر وحشنا العظيم.

***

ظَلّ هذا الجنى الصغير صنهور يركض تجاه قصر المولى نظر الحراس إليه وبدأوا في ملاحقته، كان يسيطر على ملامحه رعب كبير، حيث أطلقَ عليه بعضهم السهام، ولكنه كان يتفادها لصغر حجمه وسرعته الفائقة.

دلفَ إلى القاعة التي يوجود بها الخليل والمولى فحاصره الجنود بسيوفهم، فنظر إلى الخليل وصرخ قائلًا:

- سيدي الخليل.. لقد جئتُ للمساعدة.

- انتظروا..لا تقتلوه..من أنت؟

- أنا صنهور..كنتُ خادمًا للظام.

- ماذا تريد أن تقول؟

- سوف يُخرِجون وحشهم العظيم الليلة، يجب أن تأخذوا حذركم.

- أأنت على يقين مما تقول؟

- بلى يا سيدي.

- ألقو به في السجن إلى أن نرى ماذا سنفعل به.

- أنا أريد أن أقاتل معكم.

- تقاتل معنا.

- نعم.. لن أخذلك يا سيدي..لن أخذلك.

نَظَرَ له الخليل وقد أومأ برأسه دليلًا على الموافقة بعد أن أعطى المولى الأمر بذلك.

اجتمع الجيش العظيم أمام قصر المولى يقف جميع الجنود متأهبين للحظة الحاسمة على أعلى شُرفة في القصر يقف كلٌ من المولى وراغب والخليل بجواره ميرا، نَظَرَ المولى إلى الجيش الكبير أمامه ثم نظر إلى الخليل الذي بادله نظرة مُمتعضة بعض الشيء، وقال المولى:

"اليوم سوف ينتهي ذلك الكابوس عن مكناس، يجب أن تعلموا أن تلك البلاد سوف تظل دائمًا فخورة بكم..هذا التراب الذي تقف أقدامكم عليه يثق بكم.. اليوم نحن نقاتل قوة غريبة لم نَرَ مثيلًا لها من قبل، ولكنني أعلم أن جنود مكناس قادرون على أن يتصدّوا لأي قوة كانت.. يجب أن يكون كل جندي واثقًا بمن يقف بجواره.. كل جندي يجب أن يشعر بالخوف ليس من العدو ولكن على مدينته.. حين ينتهي ذلك اليوم فإنني أعلن أن

عبيد بخارى من نساء ورجال وصيفات كانوا أو جنودًا فإنهم أحرار".

هلّل ذلك الجمع فرحين لما قاله المولى من كلمات حيث بعد كل تلك السنوات يُقرِّر المولى أن يُحرِّر العبيد، نظر له راغب وقد كان مبتسمًا وصفق له وكأنه يريد أن يُخبره أنه يدعمه في ذلك القرار، أشار المولى بيده إلى أن يهدأ الجمع حتى يستطيع أن يُكمل:

"مواطني مكناس مَن يرى في نفسه القدرة على القتال فلينضمَّ إلينا ويقاتل دفاعًا عن أرضه وعن بيته، إن ذلك البلد سوف ينتصر ليس بي ولا بجنودي فقط ولكن بتضحياتكم أيضًا.. سوف ننتصر، والآن فلنرَ تلك القوة وما نحن قادرون على فعله".

بدأ الجميع في الهتاف بعد التشجيع الذي منحه إياهم المولى، وهتف أحد الحاضرين قائلًا:

فليحيَ المولى إبراهيم.

وردَّد الجمع من ورائه:

فليحيَ المولى إبراهيم.

انتهت تلك الهتافات وتحرَّك الجميع ليأخذ مكانه المتفق عليه حسب خطة المولى. اتخذ رماة الأسهم مكانهم فوق المباني المحيطة بالقصر وبالقرب من فوهة سجن قارا.

تحرك الخليل والمولى وميرا على جيادهم مع الفرقة الصغيرة متوجهين إلى فوهة سجن قارا، قبل أن يدرك المولى الفوهة توقف بجواده وعلى غرار ذلك الأمر توقف جيشه ونظر إلى مكناس وكأنه يشعر أنها نظرته الأخيرة.

ترجَّل المولى من على صهوة جواده وجلس على قدمه وأمسك ببعض حبات الرمال، ولمس الأرض وترقرقت عيناه بالدموع ونظر إلى الخليل الذي كان يُبادله النظر من البداية، ثم فجأة شعر الجميع بهزة أرضية عظيمة وجُنّ جنون الجياد ودوَّى صوت صرير عالٍ على إثره أمسك الجميع بأذنه، ثم قال الخليل:

– لقد حرَّر وحشه.

كانوا يقفون جميعًا على بُعد بضعة أمتار من الفوهة،نظروا تجاهها، فوجدوا أن هناك أشياء تخرج منها متخذة هيئة البشر ولديهم سيوف مضاءة وذيول عقرب، فنهض المولى وامتطى جواده وقال محفزًا:

– قُضيّ الأمر.. فلنقضِ على تلك اللعنة.

***

الوحش الأعظم

كان راغب واقفًا في قلب الجيش وقائد الحرس على ميمنته، ارتعشت قلوب الجنود حين سمعوا ذلك الصرير العالي، حاول الجميع المحافظة على هدوئهم، كانت الهزة الأرضية تحدث بشكل مستمر.

وكان رماة الأسهم يقفون على أتمِّ استعداد، ولكن فجأة اتسعت عين أحدهم وصرخ قائلًا:

- سيدي الوزير.. هناك جيش عظيم قادم.

نظر الجميع فوجدوا سيلًا أسود قادم باتجاههم، فاتخذ الجميع وضع الاستعداد في انتظار التلاحم، أعطى قائد الحرس الإشارة لرماة الأسهم، فألقوا بسهامهم تجاه ذلك الجيش القادم فأصابت السهام ما أصابت.

ثم أعطى الوزير إشارته للجيش أمامه أن يتقدَّم فركض الجميع مسرعًا تجاه ذلك السيل القادم باتجاههم، التحم الجيشان،كانت جنود مكناس تطيح ببعضهم بسيوفهم ولكن كان يقف جيش العقارب مرة أخرى.

تقدَّم ذلك الجندي مُظهرًا بسالة كبيرة، حيث غرس سيفه في ذلك العقرب المنتحل هيئة بشرية، ولكنه لم يتأثر، فحرَّك ذيله ولدغ ذلك الجندي، وسار على نهجه باقي العقارب حيث كانوا يطيحون بالجنود مرة بذيولهم.

تقدَّم قائد الحرس مسرعًا وبدأ يقاتل بشجاعة ذلك الجيش، ولكنه لا ينتهي، سرعان ما أدرك أنهم لا يتأثرون بسيوفهم الحديدية، جرى ذلك العقرب مسرعًا تجاه صفٍّ من الجنود المكناسية، وبدأ يُطيح بهم بسيفه المضيء، فكان يقسمهم إلى نصفين.

جنود آخرون من جيش العقارب كانت لا تكتفي بسيفها فقط، ولكنها كانت تلتهم معظمهم بفكِّها العظيم الذي يظهر فقط حين يحتاجه ذلك العقرب، فبعد أن يقضم ذلك العقرب جزءًا من جسده يبدأ الجندي يتلوى وتحتل عروقه لون أزرق حتى يقع ميتًا.

نظر راغب إلى الخسارة التي يتعرض لها جيش مكناس، ولا يعلم ماذا يفعل فقرَّر أن يحول الخطة من هجومية إلى دفاعية، فأمر الجنود أن يشكلوا بدروعهم سدًّا كبيرًا يحول دون وصولهم إلى بوابة القصر.

بدأ الخليل وميرا يقاتلان ذلك الجيش الصغير الذي نَهَضَ من داخل سجن قارا، ولكنهما سرعان ما استنتجا أنهم لا يموتون أبدًا حتى ظهر المولى في اشتباكه مع أحد العقارب حيث قام بقطع ذيله فتحول العقرب أمامه إلى رماد فصرخ المولى قائلًا:

- اقطعوا ذيولهم.

سار الجميع على خُطى المولى وبدأوا في الاشتباك مجددًا وقطع ذيول العقارب، أما الخليل فقد غمس سيفه في الزيت وقام بإشعاله، أظهر الخليل مهارة قتالية عالية، حيث كان سيفه يخترق أجسادهم ثم يقوم بقطع الذيل.

سرعان ما قضى الجيش المكناسي مع المولى على العقارب، ولكن لم يتبقَّ معه سوى خمسين جنديًا فقط من فرقته التي سوف تهبط معه إلى الداخل.

أمر الخمسين جنديًا أن يسكبوا الزيت في الفوهات حيث كان بكل منطقة فوهتان فقط، كانوا يلقون بواحدة والأخرى كي يهبطوا منها، فقام أحد الجنود بإشعال سهم وإطلاقه في الهواء ليعطي الإشارة لباقي الجنود عن الفوهات المحددة ليسكبوا بها الزيت ثم يلقون المشعل فيها.

بعد ذلك ربطوا الحبال جيدًا وبدأ الجميع في الهبوط إلى داخل مستنقع قارا. بمجرد أن هبط الجميع ونظروا إلى حوائط السجن امتلأ قلبهم بالرعب حيث رأوا ذلك العقرب الكبير جالسًا وكأنه كان ينتظرهم.

بدأ الجنود أعلى القصر في إشعال الأسهم والقائها عليهم فتكوَّنت بقعة من النيران كان يقبع بداخلها بضعة جنود من العقارب، حاولوا أن يفروا من تلك البقعة، ولكنهم فشلوا.

دقَّق قائد الحرس النظر فوجد أن تلك العقارب تقوم بلدغ نفسها بسُمِّها وتتحول إلى رماد، نظر إلى راغب وهو يبدو عليه التعجب الشديد ثم قال راغب فَرِحًا:

- نعم.. استمروا في صنع حلقات النيران حولهم.

- لماذا أيها الوزير؟

- إن من سمات العقارب أنها إذا أُحيطت بالنيران فإنها تلدغ نفسها.

بدأ الجنود يشعلون النيران من حولهم، وبالفعل بدأ جنود العقارب في قتل أنفسهم، ولم يتبقَّ منهم أي جندي، فرفع الجميع سيوفهم دليلًا على النصر، ولكن هذا النصر لم يدم طويلًا.

بدأت هزة أرضية عظيمة أخرى، وصوت صرير مزعج وأقدام يبدو أنها تعدو تجاههم، وظهر ذلك الوحش الأعظم ورفع راغب رأسه عاليًا حتى يستطيع أن يرى وجه ذلك الشيء، فقد كان طوله يتعدى أعلى برج في القصر.

***

ظَلَّ العقرب الكبير ساكنًا بلا حراك، طلب الخليل من المولى أن يعود للوراء حفاظًا على سلامته، فحاوطه بعض الجنود، نظر إلى ميرا ليخبرها بالمثل،ولكنه لم يجدها حيث وجدها تقترب من ذلك العقرب.

صرخت ميرا ثم غرست سيفها في قدم ذلك العقرب وبدأ العقرب يتحرك يمينًا ويسارًا، وتقدَّم بعض الجنود في محاولة لإنقاذها، ولكن كان مصيرهم أن قضمهم العقرب بين فكيه أو لدغهم بسُمِّه أو داس عليهم بأحد أقدامه الثمانية.

فكّرالخليل في حلٍّ سريع، فوجد بعض الصخور على أحد جانبي العقرب، فجرى مسرعًا ووضع أحد قدميه على أحد الصخور وقذف أذنه، وغرس سيفه في ظهر ذلك العقرب، في نفس الوقت استطاعت ميرا أن تبتعد قليلًا فأمسك بها المولى خوفًا أن تذهب مرة أخرى.

كان العقرب الكبير يتمايل ويتمايل معه الخليل وبدأ يصرخ وهو في الأعلى:

- افعلي شيئًا يا ميرا..

كانت ميرا تقف لا تعرف ما الذي تفعله مع ذلك العقرب الضخم ولكن لم يُعطِها ذلك الجني الصغير صنهور وقتًا للتفكير، فقد ظهر فجأة من العدم وتسلق على جسد ذلك العقرب واقترب من ناحية ذيله الذي يتحرك بسرعة فائقة ثم قضمه من المنتصف وألقى به بعيدًا.

بدأ العقرب يصدر صريرًا مصحوبًا بألم حتى سقط أرضًا وأصبح رمادًا، تحرك الخليل إلى ميرا التي احتضنته بشدة حيث كانت تبكي خوفًا عليه، ثم نظر الخليل إلى صنهور واقترب منه.

– شكرًا لك على إنقاذك حياتي.

– أنا في الخدمة دائمًا يا سيدي.

– فلنتقدم لينتهي ذلك الأمر سريعًا.

***

كان ذلك الشيء الذي يقف أمام راغب ما هو إلا وحش منقسم إلى نصفين، نصف عقرب ونصف عنكبوت، نصفه الأيسر كان يتمتع بيد العقرب، والأيمن لا يوجد به شيء، وأقدامه تتعدى الاثنتي عشرة قدمًا، ويحمل في وجه نحو أربع أعين وفي آخر ظهره يوجد ذيل العقرب الخاص به.

فَزِعَ بعض الجنود ومنهم من هرب ومنهم من قرَّر الوقوف والمواجهة، فتح ذلك الوحش فمه لتظهر أنياب كثيرة وبدأ في التهام الجنود واحدًا تلو الآخر، بدأ الجيش المكناسي يتقهقر إلى الخلف. حاول قائد الحرس أن يهاجم بفرقته، ولكن ذلك الوحش كان يسبقه بخطوة.

تقدَّم الوحش تجاهه مسرعًا وبيده اليسرى أمسك به ورفعه في الهواء ليسقط في فمه ثم فاجأهم بإطلاق رذاذ من فمه ليسقط على

وجوه الجنود ليحرق جلدهم، رأى راغب أن الوحش قادم نحو القصر بقوة كبيرة فصرخ في الجنود قائلًا:

- لن تستطيعوا أن تتصدوا لذلك.. انجوا بحياتكم.. اهربوا.

ثم نظر له أحد الجنود قائلًا:

- لا يمكن أن يحدث ذلك سيدي الوزير.. سوف نقاتل إلى آخر نفس بنا.. تقدّموا يا جنود مكناس.

تقدَّم الجنود محاولين أن يُشكِّلوا سدًّا ولو حتى بشكل مؤقت ليدافعوا عن القصر كما أكد لهم المولى، ولكن لم يكن ذلك الحاجز البشري ليدوم طويلًا أمام تلك القوى الشيطانية.

كسر الوحش ذلك السد فأشار راغب مسرعًا إلى الجنود أعلى البوابة أن يسكبوا الزيت المغلي وأن يُشعلوا به النيران، فتألم الوحش وأصدر زمجرته مما أدى إلى اهتزاز جدران القصر بالكامل، أصبح ظهر الوحش محترقًا ومشوَّهًا بالنيران، ولكن لم يكن هذا ليمنعه أيضًا

هنا تيقن راغب أن نهايته هو وجيشه اقتربت، ولكنه شعر بأمل جديد حين رأى تلك المجموعة من الأسهم غريبة الشكل تخترق جسد الوحش العظيم، فنظر إلى مكان مجيئها فوجد شخصًا أحمر الجلد ذا عين سوداء،وجسد مشعر ممسكًا بقوسه الكبيرة،إنه سالم خادم الخليل.

بدأ المولى يتقدم داخل السجن اهتداءً بالنيران المشتعلة التي تضيء له الطريق، صرخات مدوية تعلو كلما توغلوا أكثر، إنها صرخات

بشر تأتي من الداخل، كان صنهور يوجههم للطريق داخل السجن حتى وصلوا إلى مكان وجود عابد.

نظروا إلى عابد فوجدوه يجلس على عرشه المكون من العقارب السوداء وكان الظام يجلس على كرسي مماثل له بجواره، فوجئ عابد بوجود ميرا في مثل هذا الموقف فاعتدل في موضع جلوسه على عرشه ولكن استوقفته يد أبيه قائلًا:

– لا تتبع قلبك.. فتتخذ قرارًا تندم عليه.

– ولكنها ميرا يا ظام.

– ولكنها في النهاية بشر، وتريد قتلك.

تقدَّم المولى إبراهيم ووقف أمام الظام قائلًا:

– اليوم ينتهي كل شيء يا ظام.

– إننا مازلنا في البداية.

– اترك مكناس وارحل بوحشك، وسنتركك لتعيش.

– أعطني صولجاني، وسأتركك أنت لتعيش.

– صولجانك ليس معي، لو لم تخالف العهد يومًا يا أخي لما وصلنا لذلك.

– ألم تخالفه أنت أيضًا؟

- ولقد ندمتُ على فعلتي، وها أنا الآن أقف أمامك..

- تقف أمامي بشريًّا ضعيفًا.

- لقد كنا أخوين في يوم ما..

- ولكن اليوم نحن ألد عدوَّين.

- سوف أقتلك قبل أن تُدرك قدمك الأرض.

- وسوف يقتلك أنت المدنس.. ولدي.

- أصبت يا أبي.

كان مصدر تلك الكلمة ميرا، قالتها ميرا وقد غرست سيفها في ظهر المولى إبراهيم فصرخ الخليل مناديًا باسم أبيه ونظر إلى ميرا وقد أصابته لعنة السكوت، أما زنقط فقد نظر إلى ميرا فوجد وجهها مبتسمًا بعد أن تغيرت ملامحه وأصبحت عيناها تميلان إلى اللون الأسود الأدكن، ثم نزعت السيف بقوة فتألمت أذن زنقط بعد أن عاد إلى هيئته الحقيقية، ووقفت ميرا تنظر إلى الخليل قائلة بصوت يشبه فحيح الثعبان:

- أنا المدنس.. ميرا بنت الظام.

***

ظهر من خلف سالم جيش عظيم مكون من كائنات تُشبهه إلى حدٍّ كبير اتجهوا جميعًا بسيوفهم وحرابهم تجاه ذلك الوحش وبدأوا يغرسون سيوفهم به، دماء سوداء تسيل من جميع أنحاء جسده.

نظر راغب إلى ذلك الأمر مما حفزه هو وجنوده أن يتقدموا وأصبح الجميع يغرس سهامه وحرابه داخل الوحش، كان الوحش الأعظم يفتح فمه ليخرج منه شباك عنكبوتية تشل حركة الجنود المكناسية والسالمية أيضًا.

نظر سالم إلى جنوده فأعطاهم وأشار لهم أن يتقدموا أكثر فأمسك معظمهم ما يُشبه الحبال، وبدؤوا يلقونها على أقدام ذلك الوحش حتى يشلوا حركته، كان الوحش يلتهم ما تيسر له من الأجساد، كان لا يتوقف عن ذلك حتى سقطَ عندما تعثرت قدمه الملتف حولها الحبال.

تحرك جميع الجنود غارسين في معدته سيوفهم لينفجر منها دماؤه السوداء، كان يصدر زمجرته ويتمايل في محاولة ليتخلص من ذلك القيد، ثم نظر سالم إلى راغب الذي كان يقف في مستوى أعلى قليلًا عن الأرض على أحد الأبراج في القصر وقاله له:

– ف تكون الضربة الأخيرة لك.

فأمسك راغب بسيفه وقفز من أعلى وغرس السيف داخل جزئه الأيسر، شعر راغب أنه لا بد أن يكون قلبه، فانفجرت الدماء في

وجه راغب ومن يقف حوله، وأصدر الوحش صرخة هائلة، وظلّ يلتقط أنفاسه الأخيرة حتى توقفت تمامًا.

هنا رفع راغب سيفه وصرخ بوجه المليء بالدماء تعبيرًا عن انتصاره وسار على خطاه الجنود، ثم نظر إلى سالم قائلًا:

- شكرًا لك على مساعدتنا، ولكن كيف أتيتَ؟

- لقد أمرني سيدي الخليل أن أحضر جيشي للمساعدة.

- ما كنا لننتصر لولاك، ولكن من أنت؟

- خادم من الجن.. لسيدي الخليل.

نظر راغب له بتعجُّب بعد هذه الكلمة الأخيرة ثم نظر للوحش الميت خلفه وضحكاته تتعالى.

***

جرى الخليل مسرعًا إلى أبيه زنقط الذي كان يُحتضر، كانت عينا الخليل تدمعان، كان يحاول أن يُساعد والده، ولكنه لا يعرف كيف، رفع رأسه من فوق الأرض ووضعها على قدمه.

رَفَعَ زنقط حوافره ووضعها على وجه الخليل ثم أمسك بيده ووجَّه نظرَةُ مرةً أخيرة إلى ميرا وكأنه ما زال غير مستوعبًا ما فعلته، ثم حاول أن يتكلم، وكانت الدماء تسيل من فمه.

- خليل.

- أبي.. أنا لا أريدك أن ترحل.

- أنا أريدك أن تسامحني.

- لقد سامحتك منذ عرفت أنك والدي.

- يجب أن تكون ملكًا حكيمًا.

- أخبرني.. ماذا أفعلُ لك؟

- تأخذ بثأري..

- سوف أفعلُ.. أعدُك أني سأفعل.

- أنت تشبه والدتك في كل شيء.

- أريدك أن تعرف أنني ما كنت لأرحل أبدًا.

- خُذْ هذا؟

أشار زنقط إلى أحد الجنود الذي كان مرعوبًا بشدة حيث كان يحمل صندوقًا قديمًا متهالكًا قد ألقاه من بعيد لملكه حيث أخبره المولى حين يشير له أن يُحضر له الصندوق، ثم نظر ذلك الجندي إلى بقية الجنود الذين فروا من تلك المنطقة.

- الصولجان.. هو لك.. إنه إرثك.

- ماذا أفعلُ به؟

- إنه إرثك.. أنت ابن زنقط.

وبدأت عينا الظام تغمضان شيئًا فشيئًا وتوقفت أنفاسه وتلاشى من يد الخليل.

- أنت يا ميرا.

قالها عابد متعجبًا.

- نعم أنا.. لم تكن تتوقع، أليس كذلك؟

- كيف لكِ ذلك؟ أنا ابن الظام.

- لا أنت لست بابني.. إن ابنتي تقف أمامك.

- ولكنك قلت لي إن من يستطيع استخدام ذلك الخاتم يجب أن يكون مِن نَسلِك.

- ألم تخبره يا أبي؟ لا عليك يا عابد..أنا سأوضح كل شيء. أنسيتَ ما حدث بيننا؟

- ماذا تقصدين؟

- حين تسللتَ إلى غرفتي ليلًا، وأزحتَ عني كل ملابسي.. كنت أنا من أغويتك لتفعل ذلك.. حتى أستطيع أن أنقل لك من سيساعدك على تحرير أبي.

- هذا يعني أنني بشري عادي.

– أنت لا يُميزك أي شيء سوى أنك أحمق كبير، كنت أعلم كل شيء منذ البداية، علمتُ أنني المدنسة وأنني ابنة الظام، وكل هذا الفضل يعود إلى تلك العرافة التي أخبرتني بكل شيء قبل أن أقتلها.

– عرافة!

– نعم يا عابد..أمك عرافة مكناس التي أخبرتني أنني ابنة شيطان عظيم، وأنني مَن سأحرره، وأنه مُسلسل في سجن قارا، فرأيتُ أنني سوف أُحرِّر أبي من خلالك.

– أمعنى هذا أنك لم تُحبيني يومًا؟

– أنا لا أحبُّ..أنا فقط أكره..أنتَ كنتَ وسيلةً فقط لغايةٍ عظيمة، والقط الأسود كان يعلم كل شيء.

– بالفعل يا عابد.. فأنا وابنتي على اتصال دائم منذ البداية وأخبرتني بخُططها تجاهك، وأننا سوف نستغلك لنصل إلى زنقط ثم إلى صوجانه ليكون الحكم لنا.

– والمولى كيف له أن يكون زنقط؟

– أنا لم أرَ شيطانًا من قبل تؤثر فيه كل تلك المشاعر الإنسانية.. عندما رآني وأنا صغيرة لم يقوَ على قتلي فقرَّر أن يُبقي على حياتي ظنًّا منه أن يحميني، فأصبح المولى وقد صارح كترا قبل أن تموت بذلك، وكشفت لي عن هوية المولى الحقيقة.. إنه زنقط.

– قبل أن تقتلها أنت بعقاربك اللعينة يا عابد.

– ومن أخبرك يا أبي أن مَن قتلها هو عابد؟

– ماذا تقصدين؟

– أنا مَن قتلها.

– أنت.. لماذا؟

– لأنها لم تخبرني منذ البداية.. لم تخبرني بكم أنا عظيمة ومميزة.

– أجُننت يا ميرا؟ لقد قتلت حبيبتي؟

– لا تكن ضعيفًا وتصبح مثل أخيك زنقط..لقد ظَلَّ يبكي كثيرًا على كترا..فقد أصبح يشاركك حبها أيضًا.

– اصمتي يا ميرا.

– لقد كان زنقط يحب كترا يا ظام..كما أحب أم الخليل من قبل.

– اصمتي، ولننتهِ من ذلك الأمر.

– لقد جعلتيني أقتل أبي وأخي.

قالها عابد بنبرة توحي بالندم.

– أنت من قتلتهم لأنك كنت تريد ذلك.. أنت ضعيف يا عابد.

– أنا لست بضعيف.. أنا فقط عشقت.

نظر عابد إلى ميرا التي كانت تقف مبتسمة وسقط على قدميه لا يقوى على الحراك ولا الكلام، ثم ابتسم ابتسامة توضح أنه توصل لكونه أحمق كبيرًا كما وصفته ميرا وأنه لم يكن يتوقع خداعه بتلك الطريقة.

نظر إلى ذلك العقرب الذي يتحرك أمامه وأمسك به ثم وضعه على كتفه وأشار بيد إلى السماء والأخرى إلى الأرض ليظهر جيش العقارب، ونَظَرَ نظرة وداع أخيرة ثم قبض يديه ليتحرك ذلك الجيش إلى عابد ليبدأ يلتهمه وهو يصرخ ضاحكًا و صرخاته وضحكاته تتعالى حتى التهمته العقارب بالكامل.

نَظَرَت ميرا إلى الخليل الذي كان يقف خلفها ممسكًا بصولجان أبيه الأحمر، وعيناه شديدتا البياض ويقف بجانبه صنهور، كان الخليل قد أشهر سيفه بعد أن أشعله بالنيران، فتحركت ميرا بعد أن أشارت هي للعقارب أن تشكل كرسيًّا لها ثم جلست عليه وقالت

– اقتلهما يا أبي.. فأنا لست في مزاج جيد للقتال.

نظر لها الخليل بعد أن مال برأسه ناحية اليمين، وابتسم ساخرًا من كلامها، ثم جرى مسرعًا تجاه الظام الذي كانت عيناه معلقتين بالصولجان فقابله الخليل بضربات بسيفه فأصابه ببعض الجروح.

كانت ميرا تجلس لتشاهد ذلك القتال مستمتعة وتبتسم ابتسامة خبيثة، كان صنهور يتحرك متسللًا تجاه كرسي ميرا، يبدو أنه يريد أن يحاول أن يقضي عليها، بمجرد أن اقترب منها أمسكت بعنقه واقتربت من أذنه وقالت:

– لن تكون نهاية ميرا العظيمة على يد آكل لحوم بشر.

قبضت بكلتا يديها على رأسه، وشدّت قبضتها أكثر فأكثر حتى انفجر رأسه تمام، ثم قامت بإزاحة تلك الدماء المتناثرة من يدها وتابعت باقي القتال، كان الخليل قد سقط أرضًا ودماءه تسيل فقال الظام.

– أنت ضعيف مثل أبيك.

– لم يكن أبي يومًا ضعيفًا.

– أعطني الصولجان وأتركك.

– الصولجان الذي تريده سوف يكون سبب في نهايتك.

– أنت لا تستطيع أن تفعل ذلك.

– بلى أستطيع.. فأنا ابن زنقط.

وقف الخليل رافعًا صولجانه في الهواء قائلًا:

"به نمایندگی از طرف صاحب گرز را امر تأتی به شدت درخشش قسم شده توسط شما، ای زنقط سمت راست به

گسترش ثروتمند است سفیده و دهیدراسیون زمین خداوند را بالای آب اما آنچه حضرت آمد و من پاسخ من پاسخ و آرزوی من حق وحا وحا عجل عجل ساعة ساعة".

قال الخليل تلك الكمات وبمجرد أن قالها بدأ الصولجان الأحمر يشعُّ ضوءًا عاليًا حتى خرج منها شعاع عظيم اخترق جسد الظام، واقترب الخليل منه أكثر، وكلما اقترب تألَّم الظام أكثر، حتى توقف ذلك الشعاع فخرَّ الظام راكعًا أمام الخليل الذي قال وهو ناظرًا إلى ميرا:

– بهذا أخذت بنصف ثار أبي.

ثم تلاشى الظام من أمام الخليل، فقامت ميرا من مجلسها وتقدمت ناحية الخليل قائلة بصوت عذب:

– أنت تعلم.. أنني أحبك يا خليل.

– وأنا أيضًا.

أصدرت ميرا ضحكات عالية وهي تتحرك أمامه حتى قال إلخليل:

– لماذا يا ميرا.. لماذا؟

– لأن البشر كائنات عديمة الفائدة.

– هناك جزء منهم بداخلنا.

– لقد قضيت على ذلك الجزء،ويجب أن تقضي عليه أنت الآخر.

- لقد أحببتُك حقًا.

- لذلك أنت ضعيف.. انضمَّ لي سوف نحكم العالم معًا.

- أنا لا أريد أن أحكم العالم.

- إذًا لا تستحق أن تكون مدنسًا، والآن أعطني هذا الصولجان.

- لقد أعطيتُك قلبي من قبل.. لقد دمرتِه.

- لا تجعل المشاعر البشرية تسيطر عليك.

- لقد قتلتِ أبي.

- وأنت أيضًا قتلت أبي.. بهذا نكون متعادلين.. أنصت لي.

- أنصتي أنتِ لي.

قال الخليل كلمته غاضبًا ثم تحولت عيناه إلى الأبيض وأشار إلى تلك العقارب خلف ميرا، فتحولت إلى رماد ثم أشار بالصولجان تجاه ميرا التي تعود إلى الوراء تلقائيًا وظهر من خلفها سلاسل أمسكت بها وثبتتها في الحائط حول رقبتها وأطرافها الأربعة.

- فُكَّ قيدي يا خليل.. سأقتلك.

نظر خليل إليها ثم نظر إلى الصولجان بيده وأمسك ببلورته الصغيرة الحمرا ثم ضرب بها على الأرض لتتحطم.

- كان هذا الصولجان هو الأمل الوحيد في فَكِّ قيدك، والآن سوف تظلين هكذا إلى أن تموتي.. فأنتِ تعلمين أن جُزْأَك البشري بحاجة إلى طعام وشراب، وأنا لن أوفره لكِ.. أنتِ الآن سجينة قارا الأبدي.

تحرَّك الخليل ثم أضاف:

- لهذا السجن مخرج واحد فقط إذا عثرتِ عليه فأنتِ حرة.

تحرّك الخليل بعيدًا، وميرا تصرخ قائلة:

- لا تتركني أتعفَّن هنا.. أنا لستُ بشرية..سوف أنتقمُ منك.. سوف أقتلُك.

***

بعد أن خرجت من سجن قارا قررتُ أن أذهب إلى زيارة قبر زوجتي وابنتي، جلستُ باكيًا على شاهديهما الخاصين حتى حل الصباح، وفي طريق عودتي إلى القصر وجدتُ سالم هو وجنوده يساعدون الجنود المكناسية في إصلاح الأضرار بالقصر وبالمدينة.

عدتُ إلى قصر المولى إبراهيم فوجدتُ راغب جالسًا يتجرع من الخمر الخاصة بي، فنظرت له متعجبًا، فسكب لي بعض الشراب أيضًا، تساءل عن ميرا والمولى فأخبرته بكل شيء.

كان مصدومًا بما كان يسمعه عن ميرا وعمَّا حدث بداخل السجن، ولكن تأثير الخمر جعله يتفادى ذلك الأمر بدأنا في محاولة للتفكير في مستقبل مكناس فقررنا الآتي:

– راغب.. سوف تصبح المولى الجديد.

– المولى! يبدو أنك تهذي من تأثير الخمر.

– أنت الأصلح يا راغب.. يجب أن تعتق العبيد كما كان يريد أبي.

– ولكنني لن أستطيع أن أحمل ذلك الأمر على عاتقي وحيدًا.

– سوف أكون بجانبك، وسوف أُحصن تلك البلاد.

– كيف؟

– سوف أكوّن عصبة السحرة.

– ماذا؟

– العصبة،سوف نعمل على أن نقضي على أي أعمال سحر أسود في المغرب..بل في العالم كله، وسوف تُورث أعمالنا إلى أجيال من بعدنا.

– وأنا سوف أكون دائمًا بجانبك يا صديقي.

– والآن لنعمل على بناء مكناس معًا أيها المولى راغب.

– حسنًا أيها الوزير خليل.

***

المغرب

مدينة مكناس 2017

يقف مجموعة من السائحين يتفقدون ذلك السجن المدعو بسجن قارا، ويقف ذلك المرشد السياحي حيث كان شابًّا وسيمًا، طويل القامة، له عينان بُنيتا اللون، وشعر شديد السواد، يقف متحدثًا عن السجن وقصة بنائه.

بُني هذا السجن على يد المولى إبراهيم.. حاكم مكناس في أواخر القرن السابع عشر الميلادي، وقد كان السبب الرئيسي في بنائه سجن المعارضين لحكمه.

– كم تبلغ مساحة ذلك السجن تقريبًا؟

– مساحة المدينة بأكملها.

لقد قيل إن هذا السجن به قوة غريبة، وأنه لم يُبنَ عن طريق بشر؟

– هذه مجرد شائعات..لقد بناه عبيد بخارى تحت إشراف الوزير وكان يُدعى راغب.

- أيمكننا النزول إلى السجن؟

- بالطبع..فقد صُمّم هذا السلم الرخامي للنزول إلى السجن حيث كما وضحنا من قبل كان لا يوجد له باب، وكان يلقون السجناء من تلك الفوهات أمامكم.

- إلى أي مدى يمكننا التوغل؟

- لا يمكنك يا صديقي.. فقد أُغلقت كل الغرف وفُتحت غرفة واحدة فقط للسياح.

تقدم السائحون واتخذوا من السلم طريقًا إلى النزول ووقف المرشد في انتظار أن ينتهي الفوج السياحي من التصوير والتمتُّع بمنظر السجن، تقدمت إليه واحدة من السائحين كانت تسأله عن بعض المعلومات عن مكناس وعن تاريخها.

ثم تحرَّك ووقف أمام إحدى الفوهات ناظرًا إلى أسفل وكان بجانبه أحد الرجال، فنظر، فوجد هيكلًا عظميًّا مسلسلًا في الجدار. فقال الرجل متسائلًا:

- أيها المرشد. ما هذا؟

نظر المرشد طويلًا ثم قال:

- لا أعلم، ولكن يبدو أنه أحد السجناء قديمًا، فالقاعات هذه مغلقة منذ سنين، ولم يقوَ أحد على التوغُّل بها.

- أنت لديك عِلمٌ كثير حول هذا المكان.

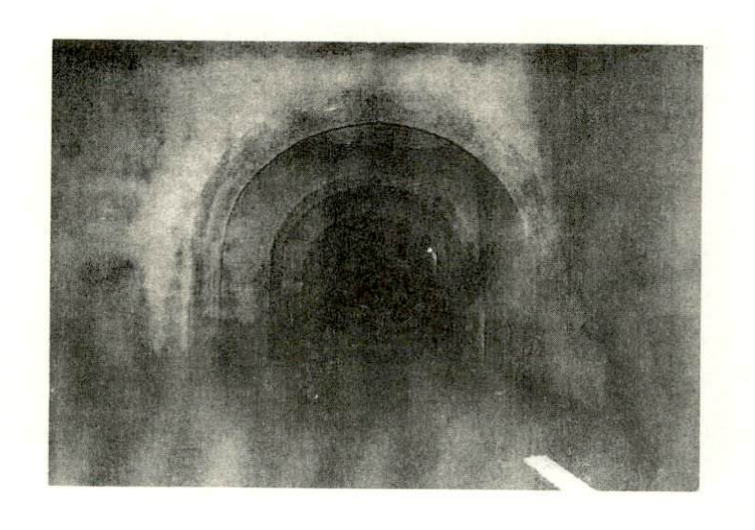
- بالطبع فالآثار هي مجال دراستي.

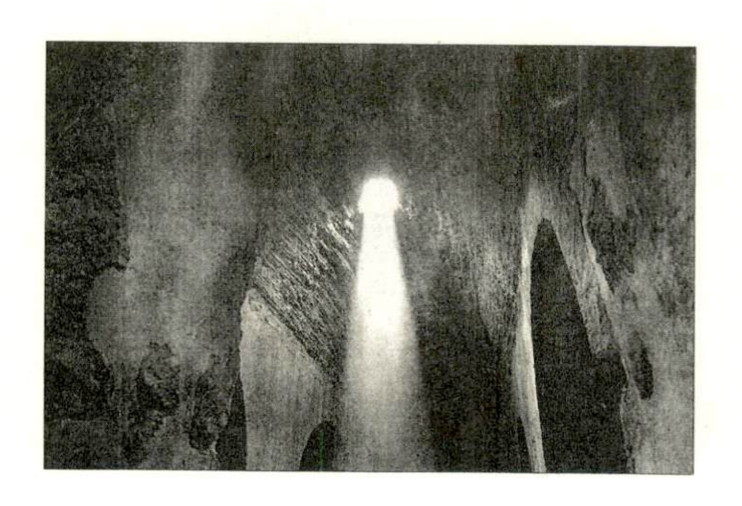
- ما اسمك أيها المرشد؟

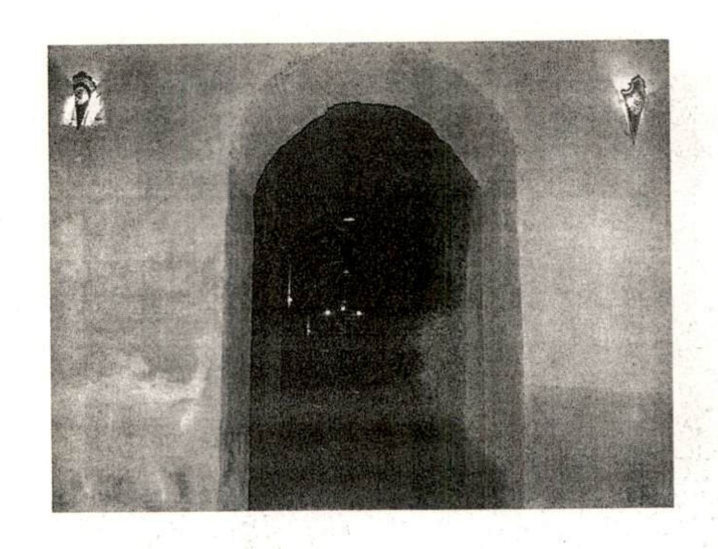
- ساجد.. اسمي ساجد الخليل.

***

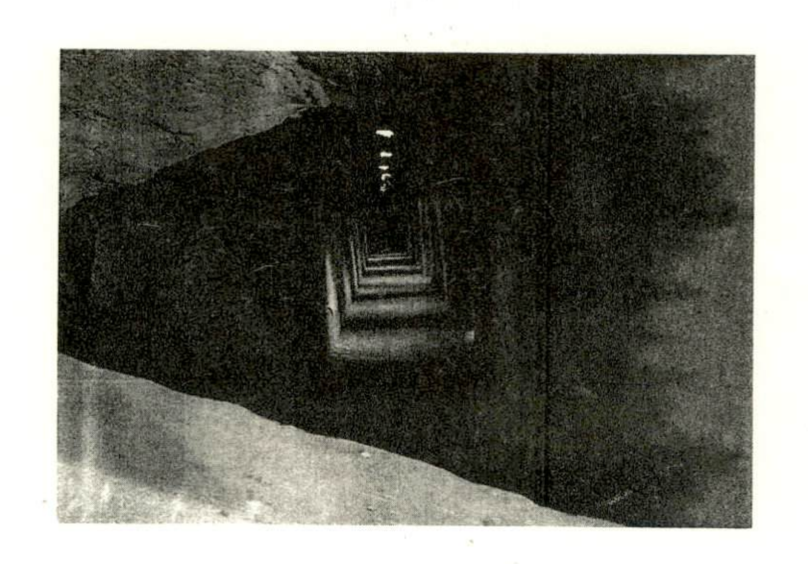
صور من داخل سجن قارا











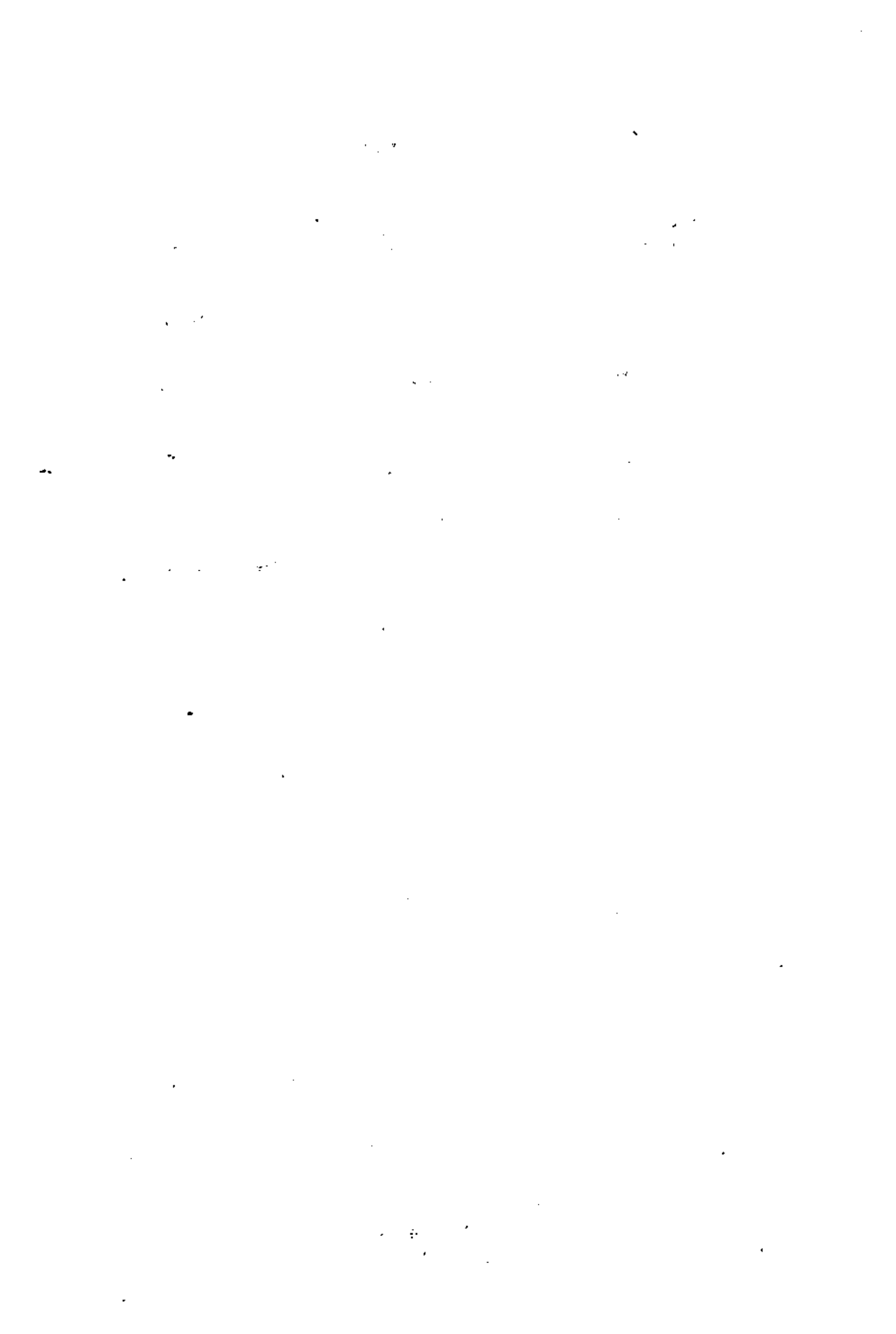


مصدر المعلومات عن السجن

1- عمارة المغرب والأندلس/ علي الطايش.

2- ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

3- مصدر الصور: موقع زاد المسافر، وبعض كلمات البحث على جوجل.







MEKNES - QARA PRISONER

أحضر صهيل ذلك الكفيف وبقلب بارد جزَّ عنقه بتلك السكين التي لا يعلم عابد من أين أتى بها، ودبَّ عابد يده في تلك الدماء ثم كتب في نصف المثلث رقم ٩٤١ نظر للرسمة داخل الورقة أصبحت مطابقة للتي رسمها هو، ثم نهض وبدأ في قراءة التعويذة باللغة الفارسية:

"من به صلح در ظام آمد از شما درخواست براى پذيرش اين ساده نسبت به قربانى است □ه اجازه مى دهد تا من به تصويب مى شود و موضوع به مرجع من به پايان رسيد از اين محدوديت ها شما بايد آنچه را □ه مى خواهيد از إنسان حتى انرژى خود را احضار و تغذيه □ارد خود را من بنده تو و فرزند سرور شما هستم شما نجات من هستند و من نجات شما هستم در زندان عجل عجل وحا وحا ساع ساع".

انتهى عابد من قراءة التعويذة، فسمع صوت صرخة عالية تأتي من المكان المظلم.

Cover by #ahz_art





12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية - القاهرة - مصر
E-mail : daroktob1@yahoo.com
01111947957